
مرواية

القط الذي علمني الطيران

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2011 /11 /628)

الطبعة العربية

2014

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف
عمان - الأردن

All rights reserved
No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval
System or transmitted in any form or by any means without prior
permission in writing

- لوحة الغلاف:

- تصميم الغلاف اسمى جرادات/ عمان

- الاخراج الفني والتنضيد اسمى جرادات/ عمان

منشورات رابطة الكتاب الأردنيين



هاشم غرايبة

القط الذي علمني الطيران

مرواية

إهداء

إلى مروح محمد بو عنز بنزي . . وللاإرادة الحرة.

كهف الغرباء

.. صباحاً؛ عندما رأى المساجين يتجمعون على شبك الساحة الداخلي، فيما قلم السجن يقوم بإجراءات تسجيله نزيراً موقوفاً على ذمة المخابرات؛ تذكر السيرك الذي أقيمت خيمته على الملعب البلدي في إربد قبل سنوات، وألهمه رسوماً زاهية نالت إعجاب معلّميهِ..

باص قرينه نهاري لا يعمل بعد المغرب. والسيرك ليلى! اختار عسّاف جحشاً سائباً على البيادر، وقال لاثغاً حرف الرّاء: (تعال نركبه، ونروح السيرك)..

يتذكر أنه تفرّج على السيرك مع عسّاف، لكنّه لا يتذكر كيف توصّل عسّاف إلى صفقة مع متعهد السيرك الذي اشترى الحمار طعاماً لنمور السيرك مقابل دخولهما الخيمة.. وعادا مشياً على الأقدام..

وذهبا مرة مع أصحابهما إلى إربد لحضور فلم "سَنَجام" الهندي الذي استدرّ دموعهم لخمس ساعات متّصلة!.. وعادوا ليلاً على ظهور الدواب يغنون: (ميري منكى جمنا، ميري منكى جمنا.. بور راسا بور سَنَجا، بوقا كي ناھي.)

- مرحبا ابن عمي!.. الحمد لله ع السلامة.

ميّز وجه عسّاف بين الوجوه المحتشدة على الشبك الداخلي للسجن، وهتف بفرح ملوحاً بيده: "ميغي منكى جمنا.."

لما ترفع إلى المدرسة الثانوية في إربد.. صار يمرّ كلّ صباح وهو يصعد التل إلى المدرسة من أمام السجن الرمادي العتيق الذي يطلّ على المدينة الخضراء متوعداً.. فيتخيّل كائنات متمردة خلف القضبان تزجر محاولة أن تكسر أقفاصها، أو تقبع في الزوايا متظاهرة بالانصياع فيما تفكّر بالهرب!

الآن وقد دخل القفص تحضر ملهاة النمر في اليوم العاشر لذكريا تامر.. يتساءل بمرارة:

- هل أنا في اليوم الأول؟..

- لماذا تحمّلت ثلاثة شهور من العناء في زنازين المخابرات؟!

ابتلع مرارة السؤال، وتوقّف عند الخطّ الفاصل بين الظلّ وبين سطوع الشمس، واستدار يستمتع بالشمس الصاعدة من الشرق.. فالخروج من مبنى المخابرات إلى السجن يعدّ فرجاً بعد التحقيق، والشّبح، والفلقه، والإضاءة الساطعة على مدار الساعة..

كأنما كان يمارس نوعاً من التنويم الذاتي لحواسّه: تحمّل الفلقه، والفروجه، والضرب في ساحة التحقيق على أنحاء جسمه بعصي الخيزران.. وبعد كلّ جولة يلقي به في الزنزانة مدمى وسعيداً!!.. فيوطد العزم على تجاوز ساعات الشّبح بحزم؛ حيث كانوا يربطون يديه إلى قضبان الكوة الكحليّة في أعلى الباب، ويبقى واقفاً زمناً رصاصياً لا يدري هل هو مقتطع من الليل أو النهار.. يستعين بأحلام اليقظة لمواجهة الزمن، يستحلب رائحة الياسمين من ذاكرته، ويفكّر في لدّة التحدي بصمت جريء منتظراً لحظة الفرح الخارقة حين يفكّون يديه!..

كان الضرب أهون من الشَّبح، ربما لأن الخيبة كانت ترتسم على وجه الخصم بوضوح أمام ناظريه!.. أما "الشَّبح" فيضعه أمام جدار الزمن المصمت.. إلى أن يفكَّ قيده حارسٌ لا يبدي شماتة، ولا يجروء على التعاطف..

وجاءت ساعة مختلفة عن كل الساعات التي واجهها بعنادٍ وثبات.. واجه خلالها وسيلة تعذيب مبتكرة لم تخطر على باله، ولم يقرأها في الأدبيات الحزبية التي تتحدث عن تجارب الآخرين: أخذوه إلى "الساحة"، كلبشوا يديه إلى الخلف. ربطوا إبهام رجله إلى قمره عضوه بخيط نايلون قصير!.. وقفوا يتفرجون عليه!

لم يفكر بالياسمين، لأن جسده أنهك خلال دقائق، وداهمه ألم لا يطاق يشع من سلسلة الظهر، ويصعد إلى الرأس مثل كرة من لهب! حاول استحضار أحلام اليقظة التي برع بها ساعات "الشَّبح" على باب الزنزانة فلم يفلح! وفي لحظة بالغة القسوة شعر كأن مستنات دماغه تتفكك، وتدور عارضة صوراً وأفكاراً خارج السيطرة! فزع فزعاً شديداً، ورفرفت راية الاستسلام غائمة في خاطره..

لحظة قرر الانهيار، أغمي عليه!..

لما أفاق؛ تفقد عضوه فوجده متورماً.. داعبه فتحرك. اطمأن وعاود النوم.. نام نوماً عميقاً وبلا أحلام.. بعدها توقّف التعذيب! هل حقاً توقف؟

وجد نفسه وحيداً في عتمة اللمة المضاءة على مدار الساعة! يواجه الزمن بثقله وتوقفه وعناده.

الوحدة صحراء تزحف إلى لبّ الروح. في العزلة يطير الطائر ما بين المنكين أربعين خريفاً لا يصل..

صار يتمنى جولة من الجلد تؤنس وحشته، وتعيد ذاكرة الياسمين إلى خياشيمه!

ليلة في العزلة كآلف ليلة مما تعدّون.. ما أصعب أن يعاشر الزمن وجهاً لوجه بلا شريك.. يواجهه في توقفه وتحفّيه.. الزمن لا يرى نهره في العتمة الساطعة، ولا تدرك ضفافه عبر التكرار الصارم لوجبات الطعام، ومواقيت الخروج إلى الحمّام!..

بعد زمن لا يدري مداه، انضمّ إليه في الزنانة زميلٌ من حزب التحرير الإسلامي آنس وحشته!.. فأينعت شجيرة الياسمين في روحه، واتسعت الزنانة أضعافاً مضاعفة بوجود شريك يقص عليه حكاية الأمير الصغير التي يحبها، فصار المكان قاعة للمناظرات، وملعباً للشطرنج، والضّامة، والقطار، والغولف أيضاً، وساحة للرهان على عدد النملات في الغرفة، ومكونات فطور الغد، وشكل الخفير المناوب..

وصاروا يعاملونه معاملة حسنة حتى ظنّ أنه سيفرج عنه..

ذات مساء جاء المحقق المناوب لتفقد الزنازين..

قال للتحريري: انصحه لزميلك. شيوعي متيس. بده نصير مثل روسيا.. الناس هناك يلموا ببنطلون جينز ما يطولوه. الستات هناك يشرمطن مشان علكة. همبرغر ما عندهم.. ها ها ها.. وبالصين الشيوعية ما يعرفوا الخبز!

ردّ التحريري بنجاجة جاءت في غير وقتها: خذوا الجينز والعلكة
والهمبرغر.. والخبز كمان. مقابل أنتمي لأمة عظيمة، ودولة صاحبة
قرار!

- هلا هلا، هاي متفقين علينا.. فرقوهم!

فرقوهم، وعاد الفتى بغط إصبعه بمرق البندورة، ويرسم على الجدار
أفعى تبلع فيلاً، فيبدو الرسم مثل قبعة مبعوجة!!

في صباح ما، سمحوا له بالاغتسال، وألبسوه ملابس العاديّة! وسمحوا
له بمقابلة والده..

في ساحة السجن، تراحت على لسانه استفسارات كثيرة لم يطرحها على
ابن عمه عسّاف النصاب الذي استقبله بحفاوة، وحمل "برشه" وبطانياته
بمبادرة ودودة..

في زنازين المخابرات كان ينام على فرشاة اسفنج تعدّ وثيرة بالقياس إلى
هذا البرش المعفّر برائحة بودرة الـ"د.د.ت"، ويبدو مثل بساط صغير
لحمته من بطانيات قديمة مسرّدة إلى قطع طويلة، وسداه خيطان قطنيّة
غليظة!

عسّاف يكبره بستتين، ولكن الستين تعتبران فارقاً كبيراً لمن هم في مطلع
العشرينات من أعمارهم، وتلزم عسّاف بواجبات ابن عمه الأصغر..

تجاوزا حوض ماء يسمّونه هنا "البركة"، وقطعا خط سير ثلة من الأفنديّة
ببدلات وربطات عنق وأحذية لامعة.. وهم يذرعون الساحة ذهاباً
وإياباً بخطى سريعة، وجدية عالية، غير أبهين بالظلّ وبالشمس!.

علّق عسّاف: أفنديّة الدار البيضاء..

تفاجأ الفتى أن هنا أفنديّة، ويقطنون داراً بيضاء!..

زغردت امرأة في مكان ما! ضحك عسّاف: يمكن واحدة منهم أجاها إفراج.. وأشار إلى الجهة الجنوبيّة الشرقيّة قائلاً بلا اكتراث:

سجن النسوان!

احتفظ الفتى بتعجبه لأن المشهد الذي أمامه صار أكثر غرابة: رأى ثلّة من الأولاد مشطّبي الوجوه، موشومي الأذرع، يغطسون في حوض ماء يتوسّط الساحة، ويتراشقون صاخبين.. نهرهم عسّاف مرغراً حرف الراء: لا تطغشونا بالمى..

أول سؤال خطر على باله: لماذا يمشي المساجين بسرعة؟ إلى أين هم ذاهبون؟ لم يسأل.. فقد تعلّم في الزنّانة التعايش مع الغموض.

دخل عسّاف "ليوان" عميق يفصل بين بابين عريضين، واتجه يساراً إلى "القاووش" الجنوبي، فتبعه الفتى.. شعر كأنه يدخل "مغارة". المكان معتم، وتفوح منه رائحة عطن عتيق، وأمونيا حادّة مختلطة برائحة بصل مقلي!

القاووش ليس فيه ميزات تذكر سوى باب حديد عريض، أما في الدّاخل فالأرضيّة كلّها مفروشة بالنزلاء.. ورأى خيطاً من البراغيث يتسلّق إطاراً خشبياً خرّمه التسوّس لنافذة نصف نافذة، يتدلّى عليها عنكبوت ترثو نسيجها بصبر وأناة..

* كل قاووش مهجع. وليس كل مهجع قاووش. القاووش يزيد عدد نزلائه عن الخمسين.

عسّاف يتردد على السجن منذ نعومة أظفاره.. فقد بدأ حياته المهنية وهو في الصّف السادس عندما كان يبيع "سجائر فرط" للطلاب، واتضح مواهبه يافعاً عندما استفاد من حقيقة الوزن النوعي للزيت.. فباع طناً من زيت الزيتون لتاجر في عمّان، واكتشف التاجر أن الصّفائح مليئة بالماء الذي يطفو على وجهه بعض الزيت..

صدق المثل القائل: النصاب أكل مال الطماع!

جعبة عسّاف في النصب والاحتيال لا تنضب، لكن خبرته كسجين ساندت الفتى في سرعة الاستقرار في هذا المكان العجيب.

أفسح عسّاف مكاناً لابن عمه "الغر" إلى جانبه بلا اعتراض واضح ممن حوله.. وكان ثلّة من المساجين يتناجون في الركن الجنوبي الشرقي على مقربة من الفسحة الضيقة التي فرش فيها برشه.

ازدحام فظّ، لا يوجد مكان لشيء لا على الأرض، ولا على الجدران.. كلّ مساحة إصبع مستغلّة بطريقة ما..

السقف ينبعج إلى الأعلى، وحجارة قباب السقف الصّغيرة مكشوفة؛ ويتدلّى من بين مفاصلها جداول أسلاك كهربائية عشوائية، وحزم أمتعة، ودلاء بلاستيكية، وملابس، وأدوات طبخ مشحرة..

في الجدار الغربي كوة سوداء عالية، تسمّى شباكاً، وإلى الشرق شباكان استعملتا كخزائن لحاجيات المساجين، وما بينهما كتابات "مسمارية" مخطوطة على سواد الجدار..

السجن للرجال..

كلّه من النسوان..

"خولقت للعذاب.."

(سيشاهد ذات العبارات مقترنة بـمجنجر أو قوس وسهم أو أفعى..
موشومة على سواعد وأكتافٍ وصدور كثيرة هنا..)

قال "ختيار" ذو أنف ضخمة من الذين يتناجون في الركن:

- ظل حدا هناك؟

ردّ الفتى باستغراب: وين هناك؟ شو قصدك!

- في إربد.

- ناس؟

- ناس!

- طبعاً.. كثير.

- رح يظّلوا هناك مدة طويلة؟

- إيش مدة طويلة؟

- هاهاها

انفجر الجمع بالضحك.

قال الرجل الذي يتوسط الثلاثة: الأخ حرامي؟

ردّ عسّاف مرغراً حرف الرء:

- أبوك "حغامي".

توجّه الرجل إلى الفتى:

- لا تزعل مني.. أنا أبو حديد" شاويش المهجع، طبعاً علي أن أعرف كل شي. شو قضيتك؟
- رد عسّاف: سياسي.
- إيش سياسي؟
- شعر الفتى بكلمة "سياسي" كبيرة عليه.. فسكت، ولم يجب..
- الرجل الثالث ظلّ مطرقاً وصامتاً!.. لكن وجهه بدا مألوفاً للفتى.
- تابع شاويش المهجع استجوابه: الأخ فدائي؟
- رد عسّاف: حزبي.
- قطع الاستجواب دخول شاويش حقيقي صغير الرأس، سمين الجذع، رفيع الساقين، يتهادى مثل بطّة، بيده ورقة وينادي..
- عماد الحواراري..
- وقف الفتى: نعم.
- تعال، المدير يطلبك.
- خرج عماد مع شاويش الشرطة..
- أسرع.. يديك ورا ظهرك.
- نفّذ.
- اجتازا الساحة، ووقفوا بين البوابتين..
- كانوا يقتادون سجيناً جديداً..
- مرحباً حيدر.

- أهلاً يونس.
- (ردّ الشاويش على شرطي آخر)
- هات سيجارة.
- "لولو".
- إن شاء الله هيشي. محشش.
- لص؟
- لأ.. قاتل، وسجينك؟
- شيوعي.
- عوذا..
- أشاح يونس جانباً، ومال بجذعه الطويل مثل صندوق العجب، وتفل في عبّ ثلاثاً!
- غمز وكيل شرطة ذو سحنة مصفرة الشاويش حيدر، وهزّ رأسه باتجاه درج داخلي يصعد إلى الإدارة، فأخذه حيدر إلى مدير السجن.
- تكرّر الطلب، وصارت زيارته لمدير السجن منتظمة يومياً لأسبوع قادم حتى صار الأمر لا يطاق لكليهما.. وصار عماد يعرف ماذا سيقول المدير، وماذا سيفعل. وإلى أين ينظر.
- .. سيخرج قلم Bic من جيب سترته العلوي.. يخرج.
- سيدق الطاولة بأسفل القلم دقات رتبية.. يدق.
- سيسحب غطاء القلم، ويثبتته من الجهة الأخرى.. يثبتته.
- سينفخ في كفيه.. ينفخ.

سيقرأ الورقة التي أمامه.. يقرأ:

(أنا الموقع أدناه، أستنكر الحزب الشيوعي الهدام، وأعلن ولائي وإخلاصي لجلالة الملك المفدى، ولحكومته الرشيدة..)

سيقول: وقّع هنا.. يقول.

سيرمي المدير القلم على الدفتر بضجر.. يرميه.

سيلقي فروته عن كتفيه.. يلقيها.

سيقوم إلى المدفأة في وسط الغرفة.. يقوم.

سيرمي طاقيته على الطاولة.. يرميها.

سيمسح صلعته براحة كفه.. يمسخها.

سيعود للجلوس إلى الطاولة.. يجلس.

- يا إلهي ما أضيق عينيه!

الحاج "ملقي" مدير السجن رجل طيب، يعرف بجدسه أن انصياع سجينه للتوقيع سيكون خدمة لا تنسى للبasha.. لقد حوّلت دائرة المخابرات القضية إلى المحكمة، لماذا يُقحم نفسه في هذه المهمة؟ هل يُشفق على الولد؟.. ربما، لعلّ الدافع وراء هذه المناورة اليومية هو كسب رضا البasha..

أثناء هذه المواجهات لم يكن يفكر بالدفاع عن أنبل وأصعب فكرة راجت في القرن العشرين، ولم تحضر مقولات ماركس ولينين، ولا كان يدافع عن برنامج الحزب الشيوعي الأردني.. كانت لعبة "مجاورة" تنتهي بفعلي أمر متلازمين:

(اعترف!!!.. استنكر!!!)

فلم يجد غير غصن الياسمين يتمسك به، واسترجاع حكاية الأمير الصغير يتسلى بها، والعناد يستمتع بإشهاره سلاحاً يرسم الخيبة على وجوه خصومه!..

ظلّ وفيّاً لرائحة الياسمين، ويشعر بسعادة غامرة كلما أمعن في العناد..

يعاود الحاج مُلقي الدقّ بالقلم على الطاولة بملل.

- إذن ستواجه المحكمة.

...

- إنها محكمة عسكريّة..

...

- لا تميز ولا استئناف..

...

- عشر سنوات مقابل التوقيع على سطرين؟!

في البداية كان يقول كلّ جملة على حدة، ويتنظر الرد. ثم صار يختصر فترات الصمت بين الجمل؛ حتى وصل به المطاف إلى قولها سريعة متتابعة وكأنه يُسمع "محفوظة": إذن ستواجه المحكمة، محكمة أمن الدولة، إنها محكمة عسكريّة، لا تميز ولا استئناف، عشر سنوات مقابل التوقيع على سطرين.

لما سمحوا لأبيه بزيارته في مكتب مدير المخابرات، هتف به حانقاً: انت مجنون ولك، تقبل يحكموك عشر سنين بدل التوقيع على سطرين حكي، لا يزيدوا بملك سيدنا، ولا ينقصوا من طولك فتر!

ردّ مبدياً خفة دم راقته لوالده: يابه أنا واحد مجنون زي ما بتقول، لكن الحكومة مجنونة تسجن واحد عشر سنين مقابل سطرين حكلي؟..
أطرق والده، ووجهه شتيمه دارجة للحكومة: (خرا على هيك حكومة)، وتظاهر المحقق بأنه لم يسمع.

خلال زمن قصير اكتشف عماد فوائده الهائلة في السجن!.. وتعود دقائق كنيسة الروم المجاورة أيام الأحاد. وتعرف على أصوات الباعة غرب شباك المهجع الذين تتغير نداءاتهم وألحانهم حسب بضائعهم، وصار يصغي لنغمات الطبل والزغاريد خلف الجدار الشرقي.. وتحيل نساء مارقات شهيات يرقصن شبه عاريات هناك..

صار له حيزٌ على الحائط بعرض تسعين سنتماً يعلق عليه أشياء. وله امتداد هذه التسعين سنتماً على الأرض مسافة متر ونصف، فعلى نزلاء السطر الذي ينام فيه أن يثنوا سيقانهم عند النوم ليلاً ليفسحوا المجال لمن ينامون في الممر النهاري المتاح بين السطرين الشرقي والغربي..
نزلاء الممر ليلاً هم "الزقراط": عامة المساجين الذين لا حول لهم ولا قوة، يقضون وقتهم في شكّ الخرز، ونسج جرزات الصوف، وعمل مسابح طويلة من نوى الزيتون..

تعود عماد أن يسهر في الليل، وينام بعد أن يفرغ المردّوان من نزلائه كي يمدد ساقيه بطولهما!.. فيرى العجب: الشيخير والنخير. وذاك الذي يمشي وهو نائم. والذين يتبادلون المواقع لأسباب غامضة. والذي ينام جذعه على الأرض وساقاه مستندتان إلى عمود الوسط..

عند قدميه مباشرة كان ينام لصّان "خلف خلف"، أي رأس هذا عند قدمي ذلك.. استيقظ أبو زهرة على ارتعاشات جسد القط، ولهائه المريب.. استند مستنكراً: شو فيه؟!

وضع القط قدمه في صدر أبي زهرة المشجر بالجروح الملتئمة، ودفعه: انطم ولك.. عيب تتجسس علي..

عش رجباً ترى عجباً!.. لولا عسّاف لكان مبيته بين هؤلاء في الممر.. لكنّه "محظوظ!" لأنه صُتّف مع عسّاف في الطبقة الثالثة من النزلاء.. فالسجناء هنا خمس طبقات حسب تصنيف الختّيار:

1. العفش: لأن عفشهم؛ أي فراشهم وأعطيتهم وأوانيهم وطعامهم من خارج السجن، وهم سكان الدار البيضاء.

2. النواطير: عرفاء المهاجع ومن وازاهم أو حاباهم أو رشاهم.. ويحتلون زوايا المهاجع، ويتنافسون لاحتلال أحد الشباكين لاستعمالهما خزائن بالغة الأهمية.

3. النزلاء: نزلاء السطور الأربعة المستندة إلى الجدران مثل أصحاب الدكاكين، والذين يتلقون دعماً مالياً من ذويهم مثل عماد..

4. الزقرط: ينامون متراصين خلف خلف؛ ويتكوّرون على أنفسهم في المساحات الميتة حول قواعد الأعمدة الضخمة.. هم أول من يستيقظون صباحاً، ونامون بعد تناول وجبة العشاء مباشرة..

5. السفراء، وهم شميمة الآغو، والسكرجية العابرون، وضرية الشفراء، والنشالين، ومن لا والي لهم ممن قبض عليهم في "ظروف تجلب الشبهة".. لا مكان محدد لهم في السجن، ولا

خارجة! لذا فهم "سفراء" رُحّل دائماً.. وفي سجن المحطة المركزي لهم مهجع خاص بهم يسمى السفارة!

.. قد يرتقي "النزيل" إلى مرتبة أعلى، وقد ينزل إلى منزلة أدنى. ولكن لا مناص من ذكر ملحق خاص بفتي "التنابل" و"العصافير": العصافير هم أعين الإدارة، وأذان الأجهزة الأمنية الكثيرة.. ويغضب واحد منهم إذا نعتّه بالعصفور.. وهم مبثوثون على درجات السلم الخمس كلها.. ومثلهم فئة التنابل الذين قرروا مواجهة الحبس بالتنبلة، والنوم، والتطيش. موجودون في كل مهجع، وأشهرهم معالي الوزير، نزيل الدار البيضاء.

يعدّ المساجين مرتين يومياً: العدّ النهاري؛ ويتم بعد الغداء بوقوف المساجين في الساحة طابور بخمسة مسارب. كل خمسة بجانب بعضهم بعضاً.. والعدّ الليلي يتم بأن يقف المساجين كل واحد على برشه ومن يتم عدّه يجلس.. ويعاد العدّ إذا لم يتطابق مع الرقم الإجمالي المسجل عند قلم السجن.

جاء الشاويش حيدر بعد العدّ المسائي.. تخطّى أجساد النائمين في الممر بحرص، وجاء إلى حارة أبو حديد.. كان عماد مستمتعاً بالاستماع إلى المساجين، وهم يتبارون في تجويد حركات قصصهم، ويضحّون بطولاتهم..

المساجين صادقون وقساءة، وإذا شاب قصصهم بعض المبالغات المكشوفة؛ فهي تخرج من باب الكذب وتدخل فضاء التهريج، أو متعة الحكاية!..

شاركهم الشاويش حيدر الحديث. وتدخل بين لاعبي شطرنج..

- - انخس حصانك يا بو زهرة.

- - لا.. يعقط يا شاويش.

ضحكوا..

أخرج شاويش الشرطة ورقة وقلماً، وتوجّه لشاويش المهجع:

- طلباتكم يا بو حديد. شو ناقص عندك؟

- خير يا طير؟

- خالتنا الحكومة صايرة حنونة هالايام، شو السيرة!

- نهرهم حيدر: مش عاجبتكم الحكومة يا همل؟

- حكومة روعة. هاهاهاه

- مين قدنا؟ شرطة، وأجهزة أمنية، وقضاة، ومحاكم يسهرواع

راحتنا.. هاهاهاهاهاه

- خالتنا الحكومة تقدم لنا الطعام مجاناً..

- قصدك العلف. هاهاهاه

- والخدمة الصحيّة مجاناً..

- أسبرين لكلّ العلل..

وتداخلت الأصوات في هذر ساخر، فأخرج حيدر صفارته من جيبه، في

إشارة تحذيريّة، وقال:

- كل واحد يضرب على اللي عنده. أنا فعلاً مكلف بنقل

طلباتكم للإدارة.

- شو؟ الصليب الأحمر جاي تفتيش بكرة؟.
- تدخل الشاويش أبو حديد: خالتكم حنونة، وتسأل عن طلباتكم ليش الزعل..
- أشهر الشاويش حيدر ذيل قلمه، وأشار نحو عماد: نبدا من عند الضيف..
- ردّ عماد بمجدية ندم عليها: هذا سجن هذا؟ هذا اصطبل. زريبة..
- سارع عسّاف بامتصاص تقطية الحاجبين التي ألت بالشاويش:
- أنا عندي طلبات يا شاويش.
- هات يا عسّاف.
- قال عسّاف بفصحى ساخرة: أنتم لا تنظمون لنا رحلات سياحية.
- (ضحك حيدر)
- كرّت سبحة السخرية من جديد:
- راتي قليل..
- كندرتي ضيقة يا شاويش.
- مرتي تطلب الطلاق.
- غضب الشاويش حيدر، وهتف:
- من العمود وجوا كلّكوا محرومين من الفورة بكرة.
- ردّ صوت من المردّوان بدا نائماً طيلة الوقت:
- يا لطيف. حرمتنا من نزهة على شواطئ الريفيرا..

قال حيدر بمزاج رائق: انت صاحي يا نص نصيص؟ قوم فرجيننا تمثيلية..

قام القط يؤدي مشهداً كوميدياً، ويستقطب هدوء المهجع:

(ها هو القط يتقدم. ها هو يتناول ربع الكونياك.. بوغوص لا يترك القنينة قبل أن يتناول ثمنها. يفلت القط يده عن "بريزة" بحالها. يلتقط بوغوص البريزة. يعيد له قرشين.

- ثلاثة يا بوغوص.

- لما ترجع القنينة توخذ القرش. (يقول بوغوص).

يقلب القط الربعية في فمه. يأخذ نفساً عميقاً. ينفض رأسه فتهتز شفتاه، وينفخ منتشياً..

- ديزل!.. خذ الزجاجة يا بوغوص. لا ترجع القرش. أعطني بالقرش مخلل..

يأكل القط المخلل. يشعر برغبة في جرعة أخرى، بوغوص يقول له الدفع أولاً.. ماذا يفعل المسكين؟

- هه. يسرق!

- وماذا تفعل عين الحكومة الساهرة؟

- تحبس القط..

- يسهرون من أجلي! هههه..

كأنه لا يوجد لصوص في هذه البلدة غير القط!

هذه أول مرة يضحك فيها عماد من قلبه.. لقد شخّص القط دور
بوغوص بلكنته الأرمنية، وكرشه العريضة، ورموشه التي لا تكف عن
الرفيف، وأدى دور الزبون الداخ، وتقمّص عين الحكومة الساهرة..
لقد أدى المشهد بمهارة..

خرج حيدر وهو يضحك مردداً: مجاني. مجاني..

ونسي أن يخبر عماد بموعد محاكمته التي تقررت في 26 / 4 / 1977م!

محكمة..!

يبدو أن ذاكرة الألم قصيرة..
ألف عماد أناقة عساف، وخفة القط، ووشم ذراع أبو زهرة، وشلاطيف
أبو حديد، وصمت الشكيك.. وأنف الختيار المتورمة..
(لماذا تتضخم أنوف المسنين!).
انتظم إيقاع عقارب الساعة..
اليوم مثل الأمس مثل الغد؛ تماماً كما يعيش الناس خارج السجن!
نسي رائحة الياسمين، وألف البراغيث. وشميسة الصبح، وحوض الماء،
وشبك الزيارة الممتد إلى الشرق من البوابة الداخلية. وتعود نكهة
القضامة المتفحمة في قهوة الطموني، ترف النزلاء المتاح.. معدّاتها
الشحيحة المعلقة على الجدار بمساحة لا تزيد عن متر مربع؛ كافية
لتزويد النزلاء بالشاي والقهوة: كاسة الشاي بقرش، وفنجان القهوة
بقرشين.. وسيجارة الكمال بتعريفة..
اشترى عماد سيجارتي كمال وفنجان قهوة، وجلس في ركن مشمس
مع "الختيار" الذي كان ينسج له قلادة خرز..
رفع الختيار عينيه الكليلتين عن الخرز، وتحركت تفاحة آدم صعوداً
وهبوطاً بين ثنايا رقبته المجددة، وقال: شو عموه؟ أشوفك انسجمت مع
حياة الزريبة؟

لم يفهم.. تفرّس وجه العجوز؛ كانت الحطّة المرقّطة بالأسود التي يرتديها دائماً حتى وهو نائم تلقي ظلالاً على أخايد وجهه فتبدو أعمق من المعتاد.. حقاً إنه "ختيار" يُذكره بكبير عمّال مطبعة "جريدة الصّباح" حين يجهد السهر.. (عمل في الصحيفة متدرباً الصّيف الماضي).

قدّر أن الختيار منزعج لوصف مهجعه بزريبة الدّواب..

- هون نام أجدادك قبل ما يسكنوا حواره.. آه، كان الحكم للبدو، وما حدا يسكن السهل.. بتعرف ليش؟

صمّت: عن ماذا يتحدث الختيار..؟

- كانوا يحصدون محاصيلهم ويضبوها بالمغر والبيار، ويطلعوا ع الجبل، وفي الليل يشيلوا مونتهم منها أول بأول..

وازن "مِعْقَلَه"، وتابع: هيك كان الفلاح يسرق لقمته من سطوة البدو، وضرايب العصملي.. ما حكى لك أبوك وجدك؟

فهم ولم يفهم.. وتشوّق لسماع الحكاية. وحكّ رأسه ليسأل عن أجداده وعلاقتهم بدار السرايا..

توقفت أصابع الختيار عن العمل، وصوّب أنفه الضخم إلى كبد السماء:

- لكنه اليوم سجن، زريبة على رايك. الدواب تتعود مرابطها.. لكن الزلم ما تنربط!

بماذا يرد عماد؟

يصمت!

* معقله: هيئة وضع العقال فوق الرأس.

- أنا تعودت وراحت علي.. لكن انت شاب بأول عمرك.. خليك صاحي!

ثم رفع رأسه باعتزاز: أنا ابن "التل"، بيتي ع الدرج هناك، درج التل ما غيره.. جنب دار المكنست..

غصّ الختیار بدمعته، وتابع: أحسّ كأن بيتي بعيد عني بعد نجم سهيل.. تعودت!

قاطعهما حضور عسّاف. وقف أمامهما، وهتف برعونة من يزفّ بشرى: اطمئن يا ابن عمي ما فيه محكمة!

مسح الختیار أنفه الكبير، وما سال على وجنته بطرف شماغه، وضحك: سلّمت تقاريرك وجيت يا عسّاف؟

لم يعره عسّاف اهتماماً وتوجّه إلى ابن عمّه بثقة: خبر من راس النبع..

رفع الختیار حاجبيه الثلجيين دون أن تكفّ أصابعه عن تحريك الصنارة على خيط الخرز بمهارة، وقال داغماً حرف الرءاء على طريقة عسّاف: كبف عرفت؟.. من الملازم عطا الله؟!

سأل عماد بجديّة: مين الملازم عطا الله؟

قال عسّاف: سيبك منه، مخرفن، هذا خبر من عمي الباشا ذات نفسه.

ضحك الختیار: الباشا اللي حبسك؟!

رغم أن خبريّة: (ما فيه محاكمة!) لاقت هوى في نفس عماد. إلا أنه تظاهر بعدم الاكتراث؛ لأن عسّاف حقاً حُكم هذه المرّة سنتين بسبب احتياله على الباشا.. فقد زار الباشا في العاصمة وقال له:

- يا عمي • سودت وجهكم.. وأنا نادم.. يكفيني مشاكل. بدي أعقل وأصير آدمي، أرجوك توسط لي بوظيفة كويسة أكسب منها رزقي.
- قال له الباشا: يا عسّاف ما عندك حرفة ولا شهادات.. ما عندك غير سجلّك العدلي..
- ولكن بوّدي أتوب عن جد يا عمي.
- دوّر شغل بالسوق، واثبت حسن سلوكك.. بعدين يمكن نساعدك.
- دفعاً للبلاء أرسله مع سائقه الخاص ليوصله إلى باصات إربد. فما كان من عسّاف إلا أن طلب من السائق التوقف أمام محل أثاث فاخر..
- أنا فلان الفلاني. عمي الباشا.. وهاي هويتي.
- أي خدمة يا بيبك؟
- الباشا يجدد أثاث داره، بدنا ثلاجة وغسالة وتلفزيون و.. و
- صرف عسّاف "بيك" سائق الباشا، وحمل غنيمته في شاحنة، وذهب لبيعها في السوق!
- وصلت الفاتورة إلى الباشا بستة آلاف دينار.. وسجن عسّاف!
- سأل عماد ابن عمه عسّاف:
- بكم بعثها يا عسّاف؟
- بالفين.

* عمي وابن عمي في الأردن تقال مجازاً للأقارب من نفس العشيرة. وعندما يقال فلان عمي، وفلان ابن عمي فليس بالضرورة أن يكون عمه شقيقاً لأبيه.

- .. بعثها برخيص!
- أبدأ.. هيه هيك بالجملة، انت ما تعرف جشع التجار!
- شو عملت فيهم؟
- اشتريت "فكسة" بيضا مثل الحمامة..
- ما علينا.. ظلت تحوص في بال عماد حكاية (ما فيه محكمة..)
- قال لعسّاف: قم نمشي..
- مشى عسّاف مع ابن عمّه، وهمس له: الخبر أكيد لكن مو من الباشا.
- من مين؟
- من الحكومة..
- أي حكومة؟
- الملازم عطا الله حكى لي.. وقال لي ما أخبرك، لكن..
- .. لا تكمل.
- تركه، ورجع عند الختیار: مين عطا الله يا بو محمد؟
- قهقه الختیار بصوت مجلجل: ما قلت لك؟!..

لما وضع رأسه على المخذة عادت خبريّة عسّاف: (ما فيه محكمة) تطنّ في خاطره.. فاح عطر الياسمين في خياشيمه، وسرح يفكرّ بالإفراج.. شعر أنه حرّ كطائر يجلّق فوق جامعة اليرموك؛ يتذكر زملاءه وزميلاته، ووجبة الغداء على المسطح الأخضر.. ويبحث عن يقينه المتفائل أبدا

بتحرير فلسطين ووحدة العرب والعدالة الاجتماعية، وعن اندفاعه الحار بالترويج لحق الناس في حرية التعبير وحرية التغيير!

أحلام اليقظة تذهب به إلى محاضراته مع أساتذته وزملائه وزميلاته، ويتذكر تلك المناوبات الليلية في صحيفة "الصباح" حيث كان يستمر الجدل بين الشباب منقسمين بين مؤيد لتدخل الجيش السوري في لبنان إثر اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وبين معارض لهذا التدخل.. ويسرفون في شرب القهوة والتدخين حتى طباعة النسخة الأولى من الصحيفة، كان هطول الصحيفة ساخنة من سقف المطبعة يشكل فرحة متجددة للشباب كل مرة، يتزاحمون على النسخة الأولى يبحثون عن اسمائهم مطبوعة فيها، ويهبطون مع أول خيوط الفجر مشياً إلى وسط المدينة ليتناولوا الحمص والفول والفلفل والشاي على رصيف مطعم هاشم، ويستعرضون مهاراتهم في رصد تفاصيل استيقاظ المدينة.

الآن هنا لا تراوده الأحلام الكبرى حول الحرية والتحرر وتحرير فلسطين، ويتراجع إحساسه بأنه فاعل في تغيير هذا الكون، وأنه جزء من مشروع إنساني يوحد مع أحرار العالم في كل مكان، ويكتفي بالإشفاق على أحوال المساجين.. يتذكر زملاءه الذين يضيقون ذرعاً بالمحاضرات وبالمناوبات الليلية في الصحف.. ولا يدركون متعة أن تجلس مع صديقتك على الرصيف المغبر، ولا يستمتعون حق المتعة بالجلوس تحت دالية الصريحي الذي جعل حديقة بيته كفتيريا صيفية لطلاب الجامعة..

- آه يا صديقتي كم أضعت من الوقت في مدح الاشتراكية، وفاتني أن أقول كم أنتن جميلات!

- آه ما أقسى أن ندور في باحة السجن بلا هدف..

- آه ما أروع أن نهيم في شوارع العاصمة مع بزوغ الشمس!

- آه كم أحنّ لياسمينه بيتنا!

ختم تأوهاتة بتساؤل له طعم القطران: لماذا أنا هنا؟.. لماذا أنتم هناك؟..

كان يقظاً لما نادوا عليه بعد أذان الفجر ليجهز نفسه للسفر إلى العاصمة!
جهزوا موكباً ضخماً لمرافقته:

وحده في "البوكس": سيارة المساجين التي يتسع مقعدها الخشبيان
المتقابلان لعشرين أو ثلاثين سجيناً. وأمامه سيارة نجدة تصرخ وي وي
يويو ووووو، وخلفه سيارة جيب مسلحة بمدفع رشاش، وتوجّه الموكب
إلى عمّان!

كانت المحاكمة أسرع مما توقع:

دخل قاعة المحكمة حيث كان المحامي عدي مدانات بانتظاره هناك..

قال الأستاذ: حكمك تقريباً جاهز، ولكن سأترافع عنك.

بعد قليل دخل قاسم بيك مدير مخابرات إربد، ومعه ضابطان من
جماعته، وجلسوا في مقدمة القاعة.. تبعهم رجلان جلسا في منصة
الشهود.

دخل ضابط بنجمتين لامعتين، وسيم بشوش، وقف عند منصة مكتوب
عليها "المدعي العام"..

سيجحره.. "جحره"! البحلقة في عيني الخصم بوجه عابس صارم عادة
أردنية أصيلة!.

أعاد المدعي العام ما كان يقوله الحاج ملقي.. الفرق الوحيد أنه لم يمسح جبينه براحة يده.

بعد صمت قصير، قال: لا حاجة بنا لاعترافاتك، ولا لتوقيعك.. المحكمة ستقرر..

جلس في قفص الاتهام، وصاح جندي عليه وشاح أحمر:

- محكمة..

وقف رجال المخابرات الثلاثة، والمدعي العام، والمحامي والشاهدان.. الشرطيان اللذان يخفراهما كانا واقفين بجانبه سلفاً مثل الرقم عشرة، يونس طويل ورفيع، وحيدر قصير وسمين..

لم يقف عماد لأنه لم يكن يعرف أن عليه الوقوف..

دخل القاضي ومعه عضوا اليمين واليسار، ووقفوا خلف المنصة، وكان الأستاذ عدي يشير بيده هاتفاً:

- انهض. قف..

لكن عماد تنح..

[كبار السن لا يفهمون شيئاً وحدهم، وإعطاء الشروحات يتعب الصغار..]

خرج القاضي يتبعه العضوان غاضبين، وانقلبت الدنيا..

المحامي يوضح. وضابط المخابرات يتوعد. المدعي العام يمسح جبينه، وينظر من النافذة. حيدر يرجو عماد أن يمثل للمحكمة..

فجأة أحسّ بخطورة ما فعل، وهبّت في ذاكرته نشوة الياسمين، فاستمرّ التحديّ..

- محكمة..

دخل القاضي وتابعاه.

لم يقف عماد!

خرج القضاة!

أعجبته اللعبة، وركب رأسه.

رفعت الجلسة!

أخيراً.. وجدوا الحل.. أخرجوه من القاعة، ونادى الحاجب:

"محكمة.."

وقف الحاضرون إلى حين جلس القضاة تحت ميزان العدالة الذي تمسكه يد امرأة عمياء!!

ثم أدخلوه.

قال المدعي العام شيئاً عن الخطر الشيوعي، وقال قاسم بيك شيئاً عن منشورات وكتب وأوراق، ووقف شاهداً إثبات لم يرهما في حياته، وأكدّا أنه شيوعي خطير.. ردّ المحامي بطلاس عن القوانين والدستور والمحاكم النظامية..

أخيراً "جحره" القاضي، ووجّه له سؤال القضاة الأبدي:

- مذب؟

أجاب بثقة: غير مذب.

رُفعت الجلسة.

بعد أسبوع سافر مرة أخرى إلى العاصمة، لم تستغرق الزيارة إلا دقائق معدودة..

باسم الملك، تلا القاضي الحكم بعشر سنوات سجن. بموجب قانون مكافحة الشيوعية رقم 92 لسنة 1953م..

شعر كأنه مشارك في عرض مسرحي مثل فيه دوراً غامضاً! وكان منتشياً بالاعتباس من كتاب الأمير الصغير:

[الذين يطرحون الأسئلة، لا ينتظرون الجواب!..]

لم يضطرب، بل لم يفكر بقرار المحكمة، كأن الأمر لا يخصه!..

ضحك متسائلاً: هل أنا سوي؟!!

لعل هذا الكون ليس هو ما هو عليه؛ بل ما نتصوره نحن عنه..

عند الضحى عاد الموكب من المحكمة العسكرية في عمان إلى ظهر التل في إربد..

تبدى له مشوار العودة أقصر من رحلة الذهاب. الربيع في آخره. هبط من "البوكس" فبهرتة شمس الضحى. فرك عينيه بيديه المكلبتين إلى الأمام. مشى محاطاً بجراسه، مرّوا ببائعات البصل الأخضر، والخبيزة، ولال العكوب، وصواني التوت.. توقف الشاويش حيدر عند حزم الحمص الأخضر يتذوقها، وهبش يونس كمشة توت أبيض. وخفتت أصوات الباعة قرب "درج الدرك"، حتى مرّ الموكب.

صعد الدرج الخارجي المفضي إلى غرف الإدارة فوق السجن.. درج حجري مكشوف بلا بسطات يقود إلى الإدارة دون المرور ببوابة السجن..

صعد عرزال الحكومة المطلّ على المدينة متوعداً ومنافقاً، حسب تعبير القط.. أول ما لفت انتباهه أبراج الحراسة، أو بدقّة أكواخ الحراسة: قباب خشبيّة صغيرة كالحبة الزرقاء بالكاد تحمي الخفير الضجر من المطر أو سطوة الشمس.. قباب حراسة مهترئة. أسوار قديمة متهالكة. أسلاك شائكة صدئة. وحراس يأكلهم الملل.. ولكن أين المفر!

رأى خفيراً يقف بكآبة عند نهاية الدرج، وخلفه أصص نباتات مصفوفة على الدرابزين غير أنه لا وجود فيها لنباتات أو أزهار..

(ربما مرّ على المكان "بيك" هوايته الأزهار ونباتات الزينة، وأهمّلها من جاء بعده..)

الآن يشتاق معرشات الدالية على مداخل بيوت إربد المتراصّة حيث تجلس في عمقها النساء على المصاطب والبرندات المزدانة بأصص الریحان، وأحواض البنفسج، ومكنسة الجنة، وزهور فم السمكة، ونباتات السجادة ذات الأوراق المخملية متعددة الألوان..

الغرف العلويّة تعتبر حديثة بالنسبة للمهاجع التي تحتها.. أدخله الشرطي المناوب.. قام الحاج ملقي من لب فروته، واستقبله في المنتصف: أهلاً عموه.

أمر بفكّ قيده، ودعاه للجلوس على كنبه جانبيّة.. وكان يجلس قبالة رجل بملابس مدنيّة..

سأله الحاج ملقي كما يسأل ضيفاً عالي المقام: كيف قهوتك؟

- مرة.

الرجل الذي بملايس مدنية مدد ساقيه، وصعّر وجهه، وقال ساخراً:
غاب وجاب والله.. عشر سنين؟! هيك الزلم ولا بلاش..

تنحنح الحاج ملقي، وكأنه غير موافق على ما قاله الرجل.

مال الرجل الذي بملايس مدنية بجذعه للأمام، وفرد كفيه كمن يستعد
لتلقي هدية، وجهره: لازم تعرف الآن انك محكوم عشر سنين سجن..
يعني إن عشت؛ تطلع من هون لما ينور الملح.

أجمل ما في الحاج ملقي عينيه الضيقتين لأنه لا يستطيع أن يجحر أحداً.
لذا مسح صلعتة بكفه، وقال: شو ذنب أبوك الحجي تجر جر عباته وراك
عشر سنين..

صمت عماد صمتاً نحاسي الرنين..!

- أنا حزين لـ أمك..

انعقدت سحابة مرة في حلقه فبلعها، واعتصم بصمته النحاسي.

قال الحاج ملقي: الحكومة ما هي مجنونة.. انس المحكمة والحكم، أي
وقت تقرر تغير رأيك احنا جاهزين نسمعك..

ربما اقتنع بما قاله الحاج ملقي، ولملم أفكاره ليدخل في حوار لين قد
يفضي لتغيير رأيه!.. لكن الضابط الذي يلبس بنطلوناً رمادياً وكنتزة
خضراء وجاكيتاً بنياً سارع للقول: غير هيك.. لما يخلصوا العشر سنين
برضه رح نظل وراك، وننكد عيشتك.

"هيك" أيقظ الذئب بقوة!.. "جحر" عماد الرجل بتحد واضح.

رفع الحاج ملقي فنجان القهوة التي قُدمت لهم بلا صحون، رشف منه بتأن، وقال: كان بدهم ينقلوك لسجن المحطة المركزي بعمان..

- عند المنظمات والرفاق.. (قال الرجل هازئاً)

شفط الحاج ملقي رشفة طويلة من فنجانه، وقال: لكني قلت تظل عندي.. أقرب لأهلك..

بعد صمتٍ باردٍ قصير تابع الحاج ملقي كلامه: فكّر بالموضوع يا بني، وعفو سيدنا واسع..

رأى عماد خيطاً طرياً من القهوة على جانب الفنجان المشروم أمامه.. رفع فنجان القهوة بهدوء، فترك قعره دائرة سوداء مغلقة على الطريزة.. كان الفنجان ثقیلاً ثقل العشر سنوات القادما.. لكنّه شعر أنه قادر على تجرعه، بل والاستمتاع بنكهته..!

مسح خيط البن بإبهامه، وراح يتأمل مكان بصمة إبهامه:

- ابصم.. لا أبصم. ابصم؟!.. ما أنا بياصم .

تحاشى الجانب المشروم من شفة الفنجان، واحتسى قهوته بهدوء محملاً بالدائرة المغلقة التي تركها الفنجان على الطريزة الخشبيّة أمامه..

فرك الرجل الذي يرتدي جاكيتاً بنياً كفيه، وقام دون أن يلمس فنجان قهوته: ما فيه فايده..

تركه الحاج ملقي يشرب فنجان قهوته حتى آخره، ثم أمر بإعادته إلى السجن.

لسرّ ما كان لكلّ باب رائحته.. غابت بوابة الياسمين، وحضرت بوابة العطن. عتبة باب السجن خطوة صغيرة بين عالمين.. في السجن يصير

الباب حارساً، والحارس مفتاحاً، والمفتاح خصماً.. أصغر المفاتيح مفتاح الكلبشة. أخطر المفاتيح أصغرها؛ يقولون: (مفتاح سجنه بيده، أي وقت بده يطلع من السجن يستنكر ويطلع.. راسمالها يكتب ورقة!..)

ورقة!؟

ما أثقل هذه..

أهذا المفتاح؟!..

المفاتيح في السجن ليست مفاتيح بل مغاليق.. تحشخش هنا ليل نهار لتذكر السجين بأنه سجين.. ومفتاح فرجه ورقة تذكره دائماً بأنه حر.. ما أصعب المعادلة!

ريثما يتمّ قلم السجن إجراءات تسجيله سجيناً ينفذ حكماً قضائياً؛ وقف في البرزخ الحرام بين الباب الخارجي والشبك الداخلي. هذا البرزخ الذي سيؤرق ليلاليه في قادم الأيام بغصة معدنية تتدحرج من حلقه إلى أسفل السرّة وبالعكس. حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

ثلاثة شهور وخمسة أيام وثلاث ساعات انقضت مع عجائب السجن، وقبلها شهران وواحد وعشرون يوماً وتسع ساعات في زنازين المخابرات مرّت مثل ليلة حمى طارئة؛ واستيقظ على رائحة عطن السجن.. حتى لما اعتقلوه من فراشه في ليلة صفرت فيها الريح، وكان البرد يسفع الجدران، ويلسع العظام.. ووضعوا القيد في يديه وألقوا به في اللاند روفر لم يشعر بهذه المارّة!..

لما جاء زوار الفجر لاعتقاله قاومهم بقبضتيه وركلات قدميه.. خرج أبوه بمنامته شاهراً بندقيته "الكلاشن". وأطلق صلية في الفضاء. ارتفع صوت أحدهم هاتفاً: مخابرات. مخابرات.. وأيقظت ليل القرية صلية

رشاش ثقيل رابض في مؤخرة لاندروفر داكنة، فظن أنها موجهة إلى صدر أبيه. توافد الجيران بمناماتهم مذعورين. خرجت أمه مذهولة منقولة الشعر، وحضنته تتلقى عنه اللكمات.. جرّوه من حضنها بعنف، فتشبث بشجيرة الياسمين التي على باب الدار.. وعوى ذئب في مكان بعيد.

وضعوا القيد في يديه، وألقوا به في الحافلة فوجد غصناً من الياسمين عالقاً في قبضته. هزّه بحنق وتصميم، وهتف بصوت ذئب جريح سمعه الناس المتجمهرين: (ولا يهملك يمه..)؛ وفاحت رائحة الياسمين المطرّز ببلورات الماء المتجمد تملأ روحه تصميماً على التحدي.

ذلك اليوم الربيعي في ذلك البرزخ بين بابي السجن شعر بالمرارة تثقل رائحة الياسمين في نفسه، وضافت روحه بذلك القفص الذي كان يراه من الخارج في غدوه ورواحه إلى المدرسة، ويظنّه دائماً سيركاً أعدّ لسواه!..

- لا لن أعود هذه المرارة يا اختيار.

- لن أستسلم لزمان السجن ورتابته..

- سأستنكر الحزب، وأستريح..

عاد إلى برشه ومهجعه وندمائه مغموماً.. استقبلوه بحرارة وحفاوة كأخ عائد من دول الخليج.

- شو أخبار العفو؟؟

- ما بعرف.

قال أبو حديد كمن يقرّ بديهيّة: طبعاً فيه عفو عام بمناسبة عيد الاستقلال.

مجرد ذهابه إلى عمّان وعودته يستدعي الاستفسار عن "العفو"، وكأنه ذهب لمقابلة الملك ذاته!..

"العفو": هذه الكلمة السحرية التي يُنسج حولها كلّ يوم حلماً بالحرية، وتتردد حكايتها في مهاجع المساجين منذ عرف بنو البشر الحبس؛ ستردد صداها على مسمعه وفي روحه حتى يقرر هو خلاصه الخاص..

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

ما أضيق السجن بلا وهم يهدد أوجاعه!

نهل من شراب "الوهم" المسكر ليخفف المرارة في حلقة، ونقل لأمه وأبيه إشاعات العفو التي يتداولها المساجين، فأشرقت أساريهما بالأمل!

* * *

تنشب رائحة الياسمين في حلقة الليلة، فيشعر بالذنب لأنه تسبب بترويع أمه وأبيه ليلة اعتقاله.. يشعر بالأسف من أجل مكتبة الدار الصغيرة التي نهبها ليفتشوها فيما بعد على مهل بحثاً عن ماركس وأنجلز وتروتسكي ولينين وماو تسي تونغ، فلم يجدوا غير كتاب [الأمير الصغير] تحت مخدته!

الغريب أنهم أدرجوا كتاباً عن الثورة الجنسية عند فلهلم رايش، وكتاب كفاحي هتلمر ضمن "المستمسكات" التي قدمت للمحكمة لإدانته!.. لما زاره أخوه المهندس، ضرب الجدار الذي يعزل بينهما بمقدمة حذائه، وهزّ قبضتيه على قضبان الحديد بحنق، وقال: يا ريتني مكانك.. ماذا يقول لأخيه؟!.. شبك الزيارة جداراً بارتفاع متر وعرضه ثلث متر، تعلوه قضبان حديدية إلى السقف لا تسمح إلا بمرور اليد للمصافحة.. شدّ على يدي أخيه، وصمت..

أخوه بعثي من "جماعة صلاح جديد". محروم من جواز السفر، ممنوع من العمل في الوظائف العامة، لكنه وجد فرصته في مكتب هندسي يدرّ عليه دخلاً أفضل من الوظيفة الحكومية.. أخوه من المغضوب عليهم عند: حزب البعث الحاكم في سوريا، ومن حزب البعث الحاكم في العراق، ومن حزب المخابرات الحاكم في الأردن..

يقول أبوه: شو هالحزب اليتيم؟ لا مع ستي بخير، ولا مع سيدي بخير!.. بعد اعتقال ابنه الأصغر صار يقول لابنه الكبير:

(اقبل منحوسك لا يطلع لك أنحس منه..)

يطرق أخوه متحيراً، ويتمتم: صارت أمي تحرّم دخول الكتب إلى بيتنا!

سَلَّم أخوه على سجين زميل له؛ "المهندس" نزيل الدار البيضاء، وأوصاه
بأخيه خيراً، ومضى..

يشعر أن حظّه عاثر، فهناك عشرات الرفاق المعروفين، ومئات الحزبيين
المعارضين، وآلاف الموالين للمنظمات الفلسطينية يُضَيَّق عليهم السفر،
وكسب الرزق، والعيش بأمان. وقلة منهم تصطادهم قضبان السجن.

- هل هي مجرد رمية نرد رمتني في هذا المكان الكئيب!

- السجن تواطؤ قانوني بين السلطة والمجتمع..

- على رأي القط (السجن منافق)!!..

حياة السجن أضيق من الحياة خارجه، ولكنها مزدحمة أيضاً. هنا يعدّون
حبّات الخرز، ويحرّكون أحجار الشطرنج، ويرمون النرد، ويحسبون
ديبب الزمن المتتابع فوق جلودهم..

محدودية المكان إحساس سطحي أولي. السجن يفتقد أشياء لا يفتن لها
الناس في حياتهم اليومية. إنه يفرح كطفل بكلّ ما يعتبره الناس عادياً..

- أليس متعة أن أمدّد ساقيّ إلى آخر مدى أثناء النوم؟

- ما ألد استحضار رائحة الياسمين على باب بيتنا.

تفوح رائحة الياسمين ببساطتها المذهلة، ويحضر طيف أمه بجداولها
الخصبة المدلاة كجبل نجا..

- يمه؛ روعي ترفرف مثل عصفورة متوفة الريش تحنّ إلى دفتك..

يجنّ إلى صوتها، ويستعين على حبس دموعه باستعادة قصصها قبل
النوم..

كان ياما كان..

كان فيه حديدوان..

وكان فيه غولة.

- اسنانها.. كيف اسنانها يمه؟

- من الأول يا يمه.

- أووه... ما قلنا وعدنا.

- حلفتك بسيدي شرحيل من الأول يمه.

- من الأول صعب. وين وصلنا؟

- لحد ما سكنت الغولة في القرية.

يتراقص لهب السراج في كوّته للحظة، وتكمل الأم: هرب الناس من القرية وتركوها للغولة، وما ظل بالميدان غير حديدوان.. الغولة لحقت حديدوان.. حاصرته في أحد الأزقة، هجمت عليه. هرب منها. لحقته تهز الأرض من حولها..

اختفى داخل دكان الحداد، يد الغولة الكبيرة تسد عليه الباب، دق الجدار بعزم.. وفجأة صرخت الغولة صرخة هزت القرية. وسقط حديدوان مذعوراً.. ويا للعجب! شاهد يد الغولة تنكمش، وتنسحب بسرعة خوفاً من النار..

الغولة تخاف النار!؟

أمسك قطعة خشب وأشعلها، فهربت الغولة. حمل حديدوان ناره وراح يسير في شوارع القرية الخاوية كما يشاء، ولما بزغ الفجر اختبأت الغولة في مغارتها.

وقف حديدوان على السور وصاح: يا ناس.. الغولة تخاف النور والنار.
صار حديدوان يعمل نهاراً ليجمع ما يقتات به، ويشعل في الليل ناراً
تحميه من الغولة..

يقف كلّ صباح على سور القرية ويصيح على من تسوقه الصدفة قريباً
من السور أن يأتي ولا يخاف. لكن الهاربين نقلوا الرعب لمن التقوا بهم.

.. ذات يوم مرّت بنت حلوة وشجاعة، سمعت حديدوان. وقفت عند
باب السور. وسلّمت عليه. فرح بها حديدوان كثيراً، وقال لها: تعالي
تنزوج ونخلف بنين وبنات ونطرد الغولة. لكن الغولة استغلت ليلة
احتفالهما بعرسهما، وراحت تلتهم كلّ ما هو قابل للاشتعال في القرية..

غضب حديدوان كثيراً، وصاح بالناس الخائفين خارج سور القرية أن
يعطوه حطباً يجدد به شعلته في الليل، لكن الناس خارج السور كانوا
مشغولين بصياحهم، وإعداد الطعام للغولة..

ليش يطعموها يا ممة؟!

الخوف..

ليش حديدوان ما يخاف؟

تشاءب: يا سامعين الكلام نحكي ولا ننام؟..

احك يا أمي؛ احك، فصحاء هذا الليل بلا حدود..

يتناول لوح "التربلاي" المربع الذي يستعمله طريزة للشاي والقهوة..
وعندما يسنده إلى ركبتيه يصير منضدة للقراءة والكتابة.. يستدير متربعاً
في مواجهة الحائط،. يمسك قلمه ويكتب..

حديدوان لا يخاف. أنا أخاف.. خفت أن لا أرجع إلى أمي ولم أرجع!
خفت من خيط النايلون، لكنه صار ذكرى. لو كنت أعرف ما سأواجه
من عنت ربما هزمني الخوف! كنت أخاف السجن. ها أنا في السجن!
لكني لست حديدواناً.. لست بطلاً..

[تعييس هو الوطن الذي يحتاج أبطالاً].

لا أدري لمن هذا القول الجميل!.. هل يحتاج وطني أبطالاً!.. يدعي
الراديو أن وطني (واحة الأمن والاستقرار والأسرة الواحدة).. هل
الوطن سعيد لأنني في السجن؟..

المخابرات سعيدة بزجي في السجن، والحزب سعيد بصمودي،
وأصدقائي سعداء لأنني لم أشرب بهم.. الوطن سعيد جداً بدوني!! لكن
أمي ليست سعيدة.. لا أريد أن أصير بطلاً.. فقط أريد أن أعيش مثل
باقي خلق الله.. طز بالحزب.. طز بالحكومة.. طز بالأصدقاء.. سأستنكر
و..

يجب القط من بين النائمين، ويسند ذقنه إلى حافة الكناش، فيجفل
عماد..

- ايش يا قط!

- مشكلتك يا رفيق مش قادر تحوّل السجن لفكاهة وتطنشه..

يُخفي عماد الورقة التي كتبها براحة يده: فكني من فلسفتك يا قطيط..

- السجن فكاهة سمجة.. هههه

- طيب. طير من هون يا قط. بدي نام.

يختفي القط، يتمدد عماد، وتبقى عيناه معلقتان بقبة السقف المبعوجة، يستشير مخدمته بشأن الاستنكار، تجهمت له، وحاورته حتى نام، في المنام رأى ورقة الاستنكار على هيئة عتبة على باب السجن بارتفاع شبر، وهو يخطو فيجتازها إلى الخارج، لكنّه يجد نفسه في الداخل.. استيقظ وهو عبثاً يكرر المحاولة!..
بكى حتى بلل مخدمته.

اعتاد عماد مسامرة القط، فهو عذب الحضور، وينام أقل من غيره، لكنّه يرى خلال نومه من الأحلام ما يكفي غيره لشهرين أو ثلاثة.. إنه يرى أحلاماً زاهية، فردوسية، خرافية. يستيقظ دائماً على عطر سماوي، وسرعان ما يفوح أريج مملكة أحلامه السعيدة على من حوله..
ينحّي عماد كتابه مبتسماً للقط..

- هات. سولف؟

شفت في المنام.. غزلان الندى شائلة مع ضوء الفجر، سألتني: وين يا مسهل؟ قلت ع القصيلة.. أخذتني معها، صحننا الدحنون الغافي، وصبحنا ع وادي الغفر، وطرطشنا شتلات الدفلى بالندى، ومرينا على خيمة العجريّة، حملتها بين يدي وطرط فيها لشجرة التوت.. قالت العجريّة: اتركني بدي نام. قلت لها: اشبع منك وارجعي نامي..

- شبعت؟

- رغباتي ما تشبع.

ضحك عماد، وسأله بشهية مفتوحة: شو هي رغباتك..؟

لمعت عينا القط بشوق عميق، وقال: بدي كل شي.. بس كل شي.

ضحك عماد: بس؟!

- أبس!*

انفتح سيل رغبات أجاج في نفس عماد ولم يتوقف. هو نفسه لم يكن يدرك أن لديه كل هذه الرغبات..

تنهد، وقال للقط: بكرة طالع إفراج!

- كيف؟

- أستكر الحزب الشيوعي الهدام.. وخلص.

- هو هدام يا رفيق؟

ضحك الرفيق، وقال: مش صاير له لا بيني ولا يهدم..

عماد يحترم حزبه، ويجب رفاقه، كان في الجامعة منافحاً قوياً عن مبادئ حزبه، ومواقف قيادته الشجاعة، وتضحياتهم الباسلة في فلسطين والأردن.. هنا لا أحد يحفل بأرائه..

هو قارئ جيد منذ نعومة أظفاره، وحالم أهتمامه أحلامه كتابات ورسوماً نالت إعجاب زملائه وتقدير الكبار، وعندما عرف الحزب من خلال الرفيق أبو موسى، لم يعثر على "عرابه" الذي يقرأه ويعينه ويوجهه فحسب، بل تعرّف على منهج يلمّ شتاته، ويمنح رسوماته، وقراءاته، وأحلامه، وتأملاته معنى وحيوية ووهجا..!

* بس وأبس: تعني فقط، وأحياناً تعني لكن.

في زنزانة المخابرات لم يحضر في باله شيء من هذا، ولا فُكر بالمادية التاريخية، أو نظرية فائض القيمة، بل حضرت حكاية الأمير الصغير التي كان يتحلل مقتبسات منها ليدهش زملاؤه.

[إذا كان في مكان ما لا نعرفه، خروف لا نعرفه، أكل أم لم يأكل وردة.. ما الفرق؟.. لا أحد من كبار السن سيفهم..]

القط يفهمني!

القط هو حقاً قط! لم يكن وسيماً ولا مهماً، لكنّه عندما يعود من عمله مساءً، تشيع خفّته في القَاووشْ جواً من البهجة.. يدخل ومعه مواويله وحكاياته..

لما يغيب القط عن المهجع، تحلّ الكآبة مبكرة على نفس عماد.. ولماذا يغيب القط عن المهجع؟ لأن ضابط الخفر عاقبه وأنزله القبو. ولماذا عاقبه؟ لأنه تسلل إلى المنطقة المحرمة عند الباب الخارجي..

ليست هذه أول مرة يغيب فيها القط عن المهجع، لكن عماد يفترقه.. تسلى بالورقة والقلم.. رسم "العصفور والقفص" الصّورة الأكثر سذاجة وعمقاً عبر التاريخ، ويعرفها الأطفال. ل

دفع برأس العصفور خارج القفص.. ومدّ جناحيه ممزقاً الأسلاك..

قال له القط ذات مساء: أصل الإنسان ليس قرداً، أصله روح بجناحين.. لما تعرف روحك ينبت لك جناحان!.. قالها القط في سياق هذرٍ ساخرٍ كعادته؛ الآن يقلبها عماد بتفكر جاد!

ظلّ يحدّق بالرسم الذي بين يديه دون أن يضيف خطأ.

يفتقد رائحة الياسمين. يفكر بجناحين للطيران بعيداً عن خليط الروائح
المزمنة في هذه المغارة الكثيية:

- هل أستنكر الحزب، وأعلن ولائي للحكومة الرشيدة!..

يضحك بأسى: لو أنها رشيدة ما حبستني.

- لماذا لم أفعّلها من أول يوم!

- كيف سينظر لي القط، والختار؟

- هل أخذل غصن الياسمين؟

- هل أخذل أختي التي تفاخر بي بلا هوادة؟

- أبو موسى.. رفاقي الرّاحين بثبات تحت عسف الاحتلال الصهيوني

في فلسطين.. زملائي في الجامعة.. أخي.. أبي.. وأمي!

- سأخذل روعي.. ولن ينبت لي جناحان ما حييت.

شعر عماد بغصن الياسمين يمدّ جذره في صدره، ورأى حاجز العتبة

على باب السجن يرتفع إلى مستوى حزامه..

أيهما أسهل: تحمّل الحياة المشروطة والمشروخة، أم تحمّل القأوش

ورائحة كثافة بخاره الكريهة؟!

لم ينم.

في الصّباح كان أول من خرج إلى قهوة الطموني..

وحيداً يحتسي قهوته المرّة، ويقلّب وجهه في السماء بحثاً عن فضاء يتسع

لأسئلة داكنة الزرقة..

.. قطعة السماء الصّغيرة المعلّقة فوق السجن مشرّمة الحواف، منفصمة عن مساحات السماء الرحبة.. لا، ليست هذه القطعة من السماء العامة. إنها رقعة غير متقنة في عباءة المدينة الواسعة.

محدوديّة المكان تفتح على سؤال الزمن.

الزمن قنديلٌ زيتته الحركة، وفتيله الإنجاز..

حتى الجنّة لا تطاق بلا إنجاز..

يقطع تأملاته حضور القط: يخرج القط من القبو مبتهجاً. يفرد ذراعيه مستقبلاً نصف الشمس المطلة عن السور. يفتح خياشيمه. يتنفس بعمق، يمرر أصابعه الطويلة إلى الخلف عبر شعره الناعم الطويل.. يضيء.. تتضح معالم وجهه؛ عينان لامعتان. وجهٌ ناحل. أنف كبير مفلطح، فم واسع عريض الشفتين، هلالان جانبيان يرتسمان مع كل ابتسامة. أذنان ريشيتان مشنفتان.. ترتعش فتحتا أنفه وهما تشهيان رائحة شاي مغلي مع السكر..

يطلب له عماد كاسة شاي.

يرتشف القط الشاي بتلذذ..

يخرخش الشاويش حيدر بمفاتحه، وينهره: يا الله يا قطيظ بلا نياطة.

يتسلم القط كيس العدة من وكيل العهدة عند الباب الداخلي، ويمضي إلى عمله. فهو يعمل سبّاكاً، يصلح الحنفيات، ويسلك المجاري، ويصلح المعطوب من المواسير.. وهذا ما يتيح له التجول في دائرة أوسع من الساحة والقأوش.. ويتيح له أيضاً التسلّل إلى المنطقة المحرمة عند البوابة الخارجيّة مع الغروب كي يمتّع نظره بمشهد المدينة وهي تنحدر من سفح التل باتجاه شارع فلسطين، ثم تتمدّد أحيائها الجديدة صاعدة

على مهل باتجاه الجنوب: المستنبت، جامعة اليرموك، القصيلة حيث
عرزاله عند شجرة التوت والدحنون يخضب العشب بالحمرة حولها!

مساء يتجمع حوله المساجين ليحكي لهم تفاصيل يومه.. يروي المشهد
كأنه حرٌّ في عرزاله؛ يتناول فطوره تحت شجرة التوت المطلّة على وادي
الغفر داكن الخضرة، ويصف لهم ينابيع تسيل في ضوء القمر ماؤها
فضّة، ويجعلهم يتنفسون هواء نقياً يوقظ الحواس..

ينقلهم إلى مضارب الغجر، ويغني..

مرّين وما معهن حدا دادي

يمشن ع قطر الندى والبراد

- ياه قديش رقصنا وغنينا سوأ.. كنت أحبها.. كنت أعطيها ملحفة
زرقاً* بحالها..

ويختم قصته ضاحكاً بصخب: هههه.. لا تسألوني من وين جبت
المصاري..

يقول عماد: يا الله! لقد خلّق للحرية والأغاني. وا أسفاه لكنه لص، وا
أسفاه إنه في السجن..

يصمت القط قليلاً، يشعر بالامتنان، ثم يستسلم للحزن تدريجياً،
وينكمش داخل برشه، ويغفو!

* كناية عن ورقة العشرة دنانير الأردنية.

كرمة

قرب عماد القط، فغضب عساف!

اعترض عساف على انضمام القط وشريكه أبو زهرة إلى زمرة الشاويش.. كانوا يعدّون طعام العشاء بأنفسهم، ويتناولونه في زمر صغيرة..

قال عساف: أبو زهرة. آه. موافق. يجلي الصّحون ويشغل البريموس. أما القط! .. موسرجي. بقرف منه.

فرك الختار أنفه المبعجلة، وقال: أنظف منك.

لم يستسلم عساف، همس للرفيق: ابن عمي انت ما تعرف القط. اسألني أنا.. القط ابن حرام. مقطوع من شجرة. لا والي ولا تالي..

قاطعه عماد: ياعساف. هاي المساجين قدامنا.. أولاد الحمائل والعشاير أكثر بكثير من أولاد الحرام في السجن!

- القط واشي ما تنبل بثمه الفولة.. بكرة تقول يا عساف ما قلت..

عساف شاب وسيم ذكي، حاضر البديهة، واسع الخيال، لقبه هنا "اللبّيس"، لأنه أنيق الملبس؛ حذاؤه دائم اللمعان! ولثغته في حرف الراء أرستقراطية، توقع الطمأنينة في نفس السامع.. كان في صباه يلفظ حرف الراء ياءً، لكنه اكتشف أن حرف الغين ألين وقعاً على أذن السامع، ولها سحرها الخاص. هذه المواهب الإلهية وظّفها للاحتيال على عباد الله.

فهو من زاوية أخرى نصّابٌ مراوغ، وكاذب حاذق. وكاتب تقارير سرّية أيضاً! والأخيرة هي التي تجعل الشاويش أبو حديد يتساهل مع اعتراضه على قبول القط في مجموعة النخبة.. نخبة المهجع الجنوبي طبعاً.

نعم، القط "عصفور" صريح، يغرد أمام الشرطة بما يرى ويسمع دون تردد.. لكن الرفيق يغفر له هذا النوع من الوشايات العابرة: فلان عنده سكيناً. القرنة الشماليّة هربوا حشيشة. دكان فلان يبيع آغو..

ضحك القط كثيراً لما رسمه الرفيق بصورة نمطيّة: عصاة سوداء، وسلسلة مفاتيح كبيرة معلّقة في خصره، ومفك في يسراه (هل هو أعسر؟)، ضم أصابعه ولفّها بحركة نصف دائرية، وقال:

- أدير مسكة الباب، أو أدفع الشباك بإصبعي.. إن فتح دخلت.

- وإن ما فتح؟

- لرجلك (في الحقيقة هو قال كلمة أخرى).. غيره يفتح.

السجن ملجأ اللصوص المريح، ففيه يأخذون إجازة من العمل. لم يُسجّل على القط أو أبو زهرة وزملائهما زلّة سرقة واحدة داخل السجن.. ومع ذلك فإنهم يسجّلون أعلى نسبة هروب من السجون مستعينين بخفتهم في التسلل، وحنكتهم في فك المغلق..!

أبو زهرة، لصّ عتبات متواضع؛ يسرق ما تيسّر عن العتبة، من الحوش، عن البرنّدة. يسرق الغسيل، يسرق شيشب. يسرق ولو شتلة أو زهرة من الحديقة!.. لكنه أمهر "ضرب شفرات" في السجن، إضافة إلى مهارته في لعب الشطرنج.. قدّم جندياً على رقعة الشطرنج، وروى للرفيق..

(القط هرب من السجن ذات ربيع ليسرق، ولما بدّر ما جنى، عاد طائعاً في أول الشتاء من تلقاء نفسه. سلّم نفسه للشرطة، وتوصّل معهم

لتسوية حول قائمة المسروقات الطويلة في أدراجهم، وعاد إلى السجن. وألسباح" شيخ لصوص الأردن هرب أيضاً أكثر من مرة، ومن أكثر من سجن.. ولكنه قضى فترة تقاعده يلعب الضامة في سجن عمان المركزي حتى وفاته..)

حرك الرفيق فيله بمواجهة ملك أبو زهرة بحركة ظن أنها قاضية، وسأل القط عن حادثة هربه فاحمرّ وجهه حرجاً، وتلعثم!

كان زمان.. انسى.

كش..

أنهى أبو زهرة دور الشطرنج حامياً ملكه بحصان، محاصراً ملك الرفيق بلا زهو واضح.. وتابع روايته..

(القط فهم، تظاهر بألم في الكلية اليمنى، وظلّ يراجع الطبيب، ويصف له أعراض حصوة الكلية بدقّة حتى حوّل للمستشفى.. ألصق حصاة بخاصرته، ظهرت في صورة الأشعة وسط الكلية. أدخلوه المستشفى، ففر من شباك الحمام!..)

إنهم أوفياء، ويتحدثون عن بعضهم بعضاً باحترام.. والمساواة بين اللصوص أمر يبعث على الدهشة!.. أياً كان مستوى تعليمهم، ومهنتهم، ومصائرهم، واختصاصاتهم؛ فإنه لا يتكبر لصٌ على لصٍ بحسبه ونسبه، أو بمستواه التعليمي.. التعليم ليس إلزامياً عندهم. والمستوى التعليمي لا يمنح اللصّ أية أفضلية على الإطلاق، بل الأفضلية للخبرة، وهم يمتازون بحريّة تبادل المعلومات والخبرات، ويعرفون القوانين التي تخص مهنتهم أفضل من القضاة.

موظفو الدولة المختلسون محرومون من اللقب.. لأنهم - حسب القط - يعملون، ولهم رواتب شهرية، والسرقة عندهم عمل ثانوي من باب الطفاسة، ودناءة النفس..

على غير عادته لم يغنّ القط موالاً هذا المساء.. ولم يرو تفاصيل يومه بطريقة فكاهية.. ولما سأله جلساؤه كالأُمسيات الأخرى: هات. قُص. شو شفت اليوم؟ أجاب: ولا شي..

ونام!

بعيد منتصف الليل استيقظ القط، رأى الرفيق متربعا أمام كناشه الحميم، زحف مقتربا منه..

- صاحي يا رفيق؟..

زجره الرفيق برفق:

- فكني من أحلامك يا قط..

- مِشْ حلم يا رفيق. شي عن حق وحقيق..

- كلّ أحلامك تسولفها كأنها صارت عن جد.

همس بإصرار: قصة ما بقدر احكيها لغيرك.

- احكيها لقلم الشرطة.

غام وجه القط، وبدا عليه ذلك الحزن الذي يكوّره كمخدة.. أشفق عليه الرفيق، وضع كناشه جانبا، وتنهد: احك، تفضل..

همس القط على عجل: امبارح دخلت سجن النسوان..

وانتظر ابتسامة إصغاء من الرفيق.. ثم تابع: كالعادة ظبت مليكة خاتم السجينات بغرفتهن. ورجعت لمكتبها.. عند باب الحمام فك الشرطي كلبشاتي..

كف الرفيق ساقيه، تربّع. وضع قبضته تحت حنكه، وأصغى للقط..
.. اللذة المربوطة يا رفيق لما أتذكر اللي صار. كأني هناك كنت ميش فاضي. كلّ حالي كانت غرقانة باللذة.. أما.. ميش عارف أشرح لك..
اللذة المربوطة بتصير بعدين. لما تعيد الفلم..

- الفلم؟ ميش فاهم عليك. احكي على مهلك.

- دخلت الحمام أسلك المجاري. لما فتحت المنهل فارت ريحة حامضة. أنا متعود. الشرطي سد الباب علي وشعل سيجارة.. قلت له افتح ريحة شخاخن تحنق. قال لي: يعني ريحتك كالونيا..

ما علينا.. لقيت حالي لحالي بالغرفة اللي يستحمّن فيها. كان بالزاوية بريموس يهدر عليه سخان مي يغلي، وبخاره يملأ الغرفة.. بالزاوية فيه حيطه ناصية على بابها برداية مشمع. تحرك المشمع!.. فركت عيوني حتى أقشع.. شفت مرة واقفة وراء الحيطه. بالأول لمع قدامي بز. فكّرت حالي بجللم. فركت عيوني، وقربت.. اندعرت. طمّت ورا الحوطة. قربت أكثر، وشفت!.. شفت خصلات شعرها سود مدلية على وجهها، وتنقط مي.. صدرها مليون.. حلمتها نافرة مثل حبة نبق. دخت. رحت ما أقع من طولي.. تطلّعت باستغراب. كنت بدّي أقول: جاي أسلك المجاري. لكنّها أشطر مني. وقفت، ورفعت إصبعها على نص تمها.. وهمست: لحالك؟

ايدي لحالها راحت تلحمس عليها.. ارتجف حنكها لما مديت راسي من فوق المشمع. لسعتني شفايفها الرطبة. غبيت فيهن.. صارت تفور فور ياخوي. جسمها طري وساخن. مثل حبة دراق ذايه. يمكن عمرها ثلاثين. يمكن أربعين. مش مهم.. شعرها يجن؛ ناعم وطويل. وعيونها تضحك.. تفتحت مثل وردة. ما ظل براسي غير ريحة صابو نها ووشيش البريموس.

الشهوة تطوي كل شي بعسلها.. عبطتها وما ترددت. وقع المشمع بيني وبينها. مدت يدها وطلعت، مسدت ظهره على مهلها. عنتر. ركعت ولقفته بتمها.. رقبته سكر. أذانه ينقرشوا قرش. شفايفها براطم تشبع.. وقفت ع طولها. التفت الساق بالساق. تزلقنا.. صرت فوقها. ما ظل بيني وبينها غير رغبة الصابون تبقي.. الصابون مع العرق على بشرتها زبده وعسل.. صدرها لحاله يكفي أحلامي لتالي العمر. ظهرها بيدر.. بطنها مثل بطن القطة.. من الزنار وتحت مليانة أكثر من فوق.. يا خوي لما دعرته فيها.. سخن وذايب مثل حبة القطايف المرخخة بالقطر.. قريب وبعيد. غميق ولذيذ. شدتني بكل حيلها وتموجت. أنا دببت الصوت وشهقت كرمه.. اندفق عسلنا.. ودار فينا الحمام مثل دولاب الهوى...

صار ووشيش البريموس ينوس وذبنا رغبة.. انضبيت بجضنها وصرت انتفض. سحبنا فوقنا ثوبها الرطب. كان مرمي على طرف الحوطة.. وغفيت.. غفيت كأنه ما فيه شرطي ع الباب ولا سجانة بالحوش. نسيتهم. نسي السجن. نسيتهم.. كانت هي وأنا وريحة عرقنا.. حسيت بالأمان. لما طابت نفسي.. ووشوشتي: شو اسمك؟ قلت: سعيد.. لكن ينادوني القط.. ضحك: قط؟!!

انطفئ البريموس. راحت غيمة الشهوة، وفاحت ريحة الكاز والسناج والصنّة.. لمت هدموها ولاذت ورا الباب.

فتحت الباب.. بهرتني الشمس.. فطنت اني بالسجن!.. صرت أرمش، وصورتها تروح وتجي..

قال خفيري: شو شكلك فت كلك بالمجاري.

قالت مليكة خاتم: كله تمام؟..

ظليت ساكت. حتى ما حسيت بالكلبشات لما شدهم الشرطي على زنودي.. حملت عدتي، وطلعت.. ما فيه براسي غير صورتها.. لو اني برسم مثلك لرسمتها كلها. حتى شامتها عند الإبط، والوحمة اللي تحت سرتها، وبصمة تطعيم الجدري على ذراعها.. لكن فيه شي ما ينرسم يا رفيق: ريحتها.. يعني.. كيف؟ ميش ند وريحان.. ريحتها. قصدي ريحة جلدها.. ميش كل واحد منا إله ريحة غير؟ ريحتها علقت بخشومي ما تنمحي..

شاعت قصة كرمة والقط في السجن..

أقسم عماد للقط أنه لم يفش سره.

وضع القط يده على كتف الرفيق مطمئناً، وقال ضاحكاً:

طرز. ما يهمني.. ههههه

وشوش السجناء بعضهم بعضاً مكملين نقص الحكاية.. فرويت القصة بحكايات مختلفة. كلها تعتمد على التفاصيل الجنسية حسب خبرة

الراوي، أما الحادثة فتباينت أشكالها حدّ التناقض.. صارت الحكاية "فلم"
 السجن المفضل الذي يخرج كلّ سجين على هواه..
 انفراد أبو حديد بالقول: حكاية كرمة من أولها لآخرها كذب، وشطحة
 من شطحات القط..
 لكن كرمة غدت أحلام المساجين السريّة بصور لا تنضب.. ما عدا
 المسكين أبو زهرة..
 حرّك الرفيق جنديه الأبيض في وسط الرقعة، ولم يحرك أبو زهرة ساكناً..
 وين سارح يا بو زهرة؟
 ترغرت عينا "أبو زهرة" بالدمع، وهمس: ليلة امبارح استحلمت يا
 رفيق..
 ضحك عماد: كرمة!
 - يا ريت!
 - استحلمت بولد؟!..
 غصّت الكلمات في حلق أبو زهرة، ثم قال بحسرة: حلمت اني أخرج..
 - وين المشكلة؟
 انخرط أبو زهرة في البكاء، فلملم عماد أحجار الشطرنج، وقام يمشي مع
 أبو زهرة في الساحة..
 فهم منه أنه وعى على أمه تتذمر نهائياً، وتتأوه ليلاً، وماتت وهي تلد..
 ولما شبّ عن الطوق قتل أبوه أخته لأن أحداً ما نام معها!..

لم يمارس الجنس في حياته لا مع امرأة، ولا مع غيرها، إنه يعتبر الجنس إيذاء للطرف الآخر!! وهو لا يستطيع أن يؤذي غملة.. المسكين تنحصر خبرته العدائية بتشطيب جلده بالشفرة إذا غضب. وتنحصر خبرته الجنسية في الاستمنااء فقط!

على ايش تستحلم؟.. شو تتخيل يا بو زهرة؟ مسح دمعته، وقال بمرارة: حمارة. قطرة. فرس..

صارت كرمة كلمة السر التي تواطأ النزلاء على إخفائها عن مسمع خالتهم الحكومة رغم كثرة "العصافير": وشاة ومخبرين وكتبة تقارير على اختلاف انتماءاتهم: المخابرات. الأمن الوقائي. إدارة السجن. الأمن المركزي. مكافحة المخدرات.. الرفيق أيضا لم يفش هذا السر للحزب..

بعد حكاية كرمة، علت مكانة القط في المهجع، وانضم هو وتابعه أبو زهرة إلى الصّفوة، وصارا يأكلان معهم على مائدة واحدة..

همس عسّاف حانقاً: سفلة.

جامله أبو حديد قائلاً: كل الناس سفلة، وكل واحد يغطي سفالته بشطارته.

تظاهر عسّاف بالاستكانة! وتنكّد عماد من هذه المقولة أيما نكد!

استنكار

كان يوماً صيفياً بامتياز. فُتحت الأبواب على أمل صدور عفو ملكي عن السجناء بمناسبة عيد الاستقلال.. وحصلت بادرة توجع المشاعر بقرب الفرج.. بعد تمام العدّ النهاري قرقت سماعة السجن بأسماء 142 "سفيراً" من موقوفى المحافظ ليتجمعوا في الساحة.. بعد الإفراج عن ربع المساجين تنفست الممرات، وتبدلت مواقع المساجين: ارتقى بعضهم إلى مواقع أفضل، وتمتع آخرون بمد سيقانهم إلى مداها أثناء النوم.. لكن يوم الاستقلال مضى، وتلته أيام التشويق الثلاثة، وبدت إشاعة العفو الملكي بالتبخر..

في هذه المسافة القصيرة بين إشاعة عفو وأخرى ينتاب المساجين شعور حاد بالغين، وكأنهم سجنوا من جديد..

شعر الرفيق بخيبة مريرة، وكان العفو الملكي المأمول يخصّه وحده.. ظلّ يتقلب على جمر الأسئلة.. مع تسلل خيوط الفجر إلى المهجع كان قد اتخذ قراره..

- مثلما تحدّث التحقيق وملحقاته، أستطيع تحدي الاستنكار وتبعاته..

كتب الاستنكار بخط جميل في وسط صفحة بيضاء حجم A4، وكتب اسمه كاملاً. ذيلته بتوقيعه، والتاريخ الهجري والميلادي.. ونام قرير العين.

استيقظ منتصف النهار عند صفارة العد النهاري. سحب الورقة التي كتبها، قرأها على مهل. دسّها بين أوراقه. وتذرّع بأن الدوام الرسمي انتهى اليوم.. سيؤجل الأمر إلى الغد..

عصراً عاد القط من عمله، اغتسل، وجاء إلى قهوة الطموني ضاحكاً: شو ساكتين مثل اللي قابر حدا! هههه قبرتوا إشاعة العفو.

قال الختیار: يعني انت ع راسك ريشة يا نص نصيص!

- أنا.. ههههه..

شفط كاسة الشاي على دفعات متتالية، وقام متسللاً إلى الباب الخارجي مثل كل مساء، وسرّح نظره بعيداً عبر البوابة الواسعة..

(ياه ما أحلى إربد تحيط بها قرى القصبة كالقلادة: حدائق معلّقة، سطوح بيوتها أفحوان. سناسلها تين وزيتون. وبحرها قمح.. هواء نقي، غيم وندی، وخضرة على مدّ النظر..)

يمسك به الخفير. يرسله إلى القبو.. يتوسط له الرفيق عند الحاج ملقي..

فورة!

التجربة المرّة تصوير شجیّة إذا كتبت بمداد الحاضر. الزمن طويلٌ تحت وطأة العزلة، قصيرٌ إذا نظرته ملموماً في كفّ الذكرى..

الزمن مثل الماء يأخذ شكل المكان..

طال النهار، وقصر الليل، وتعودّ عماد صوت مؤذن الجامع المملوكي كل صباح، وطنين جرس كنيسة الروم كل أحد، وتعودّ المثول في طابور الخمسات للعدّ النهاري، والوقوف والجلوس للعدّ الليلي، وانتظمت زيارات أمه له، وعطّلت المدارس، وكفّ طلاب الثانویة عن المرور من

عند السجن.. ووفدت الفلاحات يجادلن محتكري البسطات غرب شباك
القأوش لبّيع القثاء واللوبياء والبامياء، وتناهت إلى المساجين نداءات
الباعة على البطيخ والشمام والتين.. وظل رجال البلدية يقلبون
البسطات كلّما قلّت الأتاوات.. وظلت الشمس تشرق وتغرب كلّ
يوم، والرفيق يقلّب ورقة الاستنكار كلّ ليلة، ويعيدها إلى مكانها، وكأنه
ينتظر مناسبة ما ليتقدم بها..!

بعد جولة القيام والجلوس امتثالاً للعد المسائي؛ تحلّق المساجين حول
موائد العشاء.. مسح أبو زهرة فمه براحة يده، وقال: خلّصنا عشاننا
والشمس بعدها ما غابت!

جحره أبو حديد وهو يلوك لقمته مصدراً مضغاً يشبه من يمشي في
الوحل.. جق. جق. جق..

أوقف الختار اللقمة قرب فمه، وقال: وعدونا بمدّوا "الفورة" لاذان
المغرب.. الحاج ملقي ذات نفسه وعدنا.. وبحضور مندوب الصليب
الأحمر.

قال عماد وهو يجمع فتافيت الخبز بورع: ضابط الخفر يهमे العدد، ويلم
المفاتيح، ويرتاح ع بكير.. ونحنا ننزرب من العصر مثل الدجاج!

قال الشكيك بصوته الواهن دائماً: ع كيفهم؟! هو نحنا عبيد عندهم!..
سحب عساف منديلاً ورقياً بالإبهام والخنصر من جيبيه، وقال: إذا وعد
المدير لازم الضباط يلتزموا.

قال أبو زهرة وهو يلم نوى الزيتون، والصّحون الفارغة: حاكمك
لاكملك.. شو بدنا نسوي..

قال عماد وهو ينسحب إلى برشه: بكرة المسا لما يرنوا جرس الدخول ما ندخل..

همس عسّاف: اش لا حدا يسمعك ابن عمي.. هذا تمرّد.. والله يطخّونا.

صباحاً خرج عماد يحتسي القهوة مع الختار عند الطموني.. صار يتسم له مساجين بالكاد يعرفهم.. وشجعانهم يملكون بموازاته فيضمون قبضتهم إلى جانبهم ويرفعون الإبهام تشجيعاً!

يبدو أن تلك "الإش" من عسّاف؛ سرعان ما وصلت الإدارة:

(الرفيق يقول ما حدا يدخل المهاجع عند المسا)..

وانتشر التحريض بسرعة عجيبة بين المساجين!

انتشرت عدوى الرية بين الجميع؛ المساجين يتحركون بجذر وتوجس، وينظرون إلى بعضهم بعيون تفيض بأسئلة مبهمة مغلفة بالصمت.. الشرطة يحملون عصيهم، ويتصرفون بخشونة، وأجبروا بعض المعفيين من الطابور على ترك أعذارهم والاصطفاف.. حتى سكان الدار البيضاء خرجوا واصطفوا في الساحة!

طابور العد النهاري الذي يتم بعد الغداء في الساحة أنعش رغبة الهياج، وكشف الغضب.

أوجس عماد خيفة، وتراقصت ركبته..

بعد تمام العد، طلب مقابلة الحاج ملقي اتقاء للأسوأ.

قال له الضابط المناوب بجلافة: الحجي مجاز. شو بدك؟

لمع ذلك العرق تحت الترقوة، موقظاً الذئب في داخله!

بلع مخاوفه، وقال للضابط بجفاء ومكر أيضاً: مِشْ شغلِكَ.
ارتبك الملازم عطا الله قليلاً، وعاد بلهجة أقل حدة: أنا أقوم بمهام المدير، إذا عندك شي احكي.
هذه اللحظة الفاصلة مخيرة، مثل شرارة تومض بصوت ذئب بعيد، وتذهب سريعاً، لكنّها تشعل الروح بما يشبه الهوس.. فتتلاشى الحسابات والتوقعات، وتترك اللحظة المشحونة تقطر خمرتها الخاصة!
ركب عماد رأسه، وقال بحزم: شكراً.. ومشى.
بُهِت عطا الله مباحث، وفكّر: بما أن معظم المساجين يتعاونون معي، فإن الذين لا يتعاونون معي يتعاونون مع غيري!.. هذا الولد عمّه باشا.. ربما يتعامل مع من هم أعلى مرتبة مني!
ربما هذا ما رفع عن الرفيق الاستجواب والعقوبة المباشرة!
لما قرع جرس المساء كان عماد والشكّيك يذرعان الساحة بخطى سريعة كما يفعل السجناء عادة..
الشكّيك لم يخفض صوته، لكن صوته خفيض بطبيعته، سأل: ندخل يا رفيق؟
أجاب عماد بعفوية: ما حدا يدخل..
سرى التعليق العابر وكأنه أمر يخص كلّ المساجين، ويخص كلّ سجين على حدة أيضاً.
عندما قالها الرفيق لم يكن قد قرّر شيئاً، ولكن لحظة وجّه الشكّيك سؤاله تقرّر كلّ شيء..

خفت ضجيج السجن، وهدأت قرعة الطرييزات البلاستيكية الصغيرة المنتشرة عند قهوة الطموني.. وفار المساجين إلى الساحة. حتى أولئك المساجين الذين كانوا منشغلين بالإعداد لوجبة العشاء خرجوا إلى الساحة!..

كرّر عطا الله نداءه عبر مكبر الصوت: (مأمير ضبوا المساجين..). ردّت حارات السجن الخمس صدى صافرات الشرطة داخل السجن: مأمور الجنوبي. مأمور الشمالي، مأمور الشرقي، مأمور الدار البيضاء، مأمور الأحداث..

صافرات الشرطة النزقة تعلن نهاية "الفورة"، والمأمير يأمر السجّاء بالدخول إلى مهاجمهم..

لكن السجّاء لم ينضبوا!

أعلن جرس السجن النفير، فخرج مأمير السجن الخمسة من الساحة، وأغلقوا الباب الداخلي للسجن، فيما استدارت الرشاشات التي على الأسوار نحو الساحة، وظهر الشرطة شاهرين أسلحتهم الخفيفة على السطوح..

ارتبك خطو الرفيق، وتلعثم: "نفير"؟! فيما الشكّيك يواصل المشي متجاهلاً هلع من حوله، وزغاريد سجن النساء، ونداءات مكبر الصوت المتوترة: كل واحد على مهجعه فوراً..

انفعل المساجين، واكتظت بهم الساحة الرئيسية، وكأنهم قدموا من خارج السجن!

سمع المساجين صوتاً ينادي: اعتصام يا شباب. اعتصام!

(كان صوت الرفيق..)

رد الشكّيك متوجّهاً لكلّ الذين تجمعوا في الساحة: ما ندخل إلا بعد
إذان المغرب..

وقف الكرزم عريف الشمالي على حافة حوض الماء بحماسة، وقال
رافعاً ذراعه الموشومة بأفعى رقطاء، وقال مفخماً حرف القاف:

هاي قلّة حيا منهم، والله يا رفيق ما نفوت لو طخونا..

استدار القبط نحو جمهرة المساجين الذين تكاثروا بسرعة في الساحة، وقال
بصوت مرتفع: شباب ما حدا يفوت ع مطرحه..

زغردت امرأة في سجن النساء! ومزط أبو زهرة فانيلته معرياً صدره
المشجر بالندوب، وأشهر "الزقراط" شفراتهم كاشفين عن أذرعهم
الموشومة؛ في إعلان جازم عن استعدادهم للتضحية بتشطيب جلودهم،
إذا هاجمتهم الشرطة!

زال ارتباك الرفيق لما رأى كلّ المساجين يستجيبون للتحريض،
ويتجمعون في الساحة.. حتى ترانزستور، وكناري والمصورة خرجوا
من الدار البيضاء، وجلسوا على حافة حوض الماء، ثم جاء حشيش
باسطاً كفيه أمامه ورافعاً كتفيه، قال لهما شيئاً بانفعال، ودخل ثلاثتهم
إلى غرفتهم البيضاء!

* الوشم ظاهرة منتشرة في السّجون! وهي وسيلة احتجاج صامتة.. منذ القدم قام
البشر بوشم أنفسهم كطريقة للتضحية جزئياً بأجسادهم، وكان الموشوم الذي
يدمي جلده بالشفرة والإبرة، يقول: أنا أسيطر على جسدي. أنا قوي!

طال صمت مكبر الصّوت، وطال الوقوف في الساحة، الترقّب عند المساجين وعند الشرطة بلغ مداه..

بدأ عسّاف موجة التذمر: شو بدنا ننام برّا الليلة؟

قال القط ضاحكاً: وماله.. زمان ما شفنا القمر والنجوم.

همس أبو حديد مرتجفاً: والله لا تشوف نجوم الظهر إن ما دخلنا..

شعر الرفيق بسحابة الخوف تنقشع من داخله على مهل، وتشرق روحه بالياسمين.. قال بصوت مرتفع:

شباب ما ندخل إلا عند أذان المغرب.

ضاع صوته في الأصوات المتداخلة والآراء المتضاربة!

صاح وطوط عريف الشرقي بصوت جهوري: يا الله ندخل يا شباب..

ماجت ساحة السجن بالارتباك، وتضاربت الاقتراحات.. في هذا الوقت المائع كاد يفسد الاعتصام، لولا مبادرة الشكّيك..

أخذ الشكّيك يد الرفيق يمينه، وأمسك يد كرزم بشماله، وقال: نحنا قاعدين هون اللي بده يفوت يفوت.

فرح عماد، واستكانت نفسه كأنما يجلس على المسطح الأخضر في جامعة اليرموك.. تذكر قيادته لمظاهرة صاخبة تضامناً مع انتفاضة الجليل رداً على مصادرة الاحتلال آلاف الدوغمات من الأراضي في شمال فلسطين*.

* (يوم الأرض).. السبت الثلاثين من شهر آذار من العام 1976، وبعد ثمانية وعشرين عاماً من الاحتلال هبّ الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني،

جلس ثلاثتهم على الأرض في مواجهة الباب مسندين ظهورهم إلى حوض الماء.. ارتبكت حركة المساجين من حولهم.. ما لبث الخيار أن تبعهم، وجلس. ثم تبعه القط وأبو زهرة.. جلس غالبية السجناء.. فتح أبو حديد فمه الذي يشبه فوهة الشكوة، وصار يلهث مثل كلب عطشان، ومنخاره العريض يفتح عروتيه ويغلقهما بعصبية، لكنه لم يجلس، ولم يدخل إلى المهجع..

الذين لم يجلسوا على الأرض ظلوا يحومون في أطراف الساحة إلى أن ارتفع أذان المغرب..

عندها قام الرفيق والشكّيك والخيار ودخلوا مهجعهم دون أن يقول أحدهم شيئاً.. تبعهم المساجين، وتنفس الجميع الصّعداء!

أكبر الرفيق وقفة زميله أبو ليلي الشكّيك!.. وكأنه يعرفه اليوم!

الشكّيك استمدّ لقبه من غموض القضية المسجون عليها: "دفع شيكات بدون رصيد".. هل هو نصّاب مع سبق الإصرار والترصد؟ أم أن سوء التقدير والحظ العائر أوقعاه في الشبك!.. وضعه ملتبس وعصي على التصنيف.. هو غامض. سكّوت. لا يتبرم من شيء وكأنه مولود هنا. من الصّعب التكهن بما يدور في خلدّه.

وانخذت الهبة شكل إضراب شامل ومظاهرات شعبية عارمة. حيث فتحت النار على المتظاهرين مما أدى إلى استشهاد ستة فلسطينيين إضافة لعشرات الجرحى والمصابين، وبلغ عدد الذين اعتقلتهم قوات الاحتلال الصهيوني أكثر من 300 فلسطيني.

الآن يتذكر عماد لماذا ارتاح لسحنة الرجل الخضراء مجرد أن رآه!.. إنه نسخة من وجه أستاذ الكيمياء الذي درّسه في ثانوية إربد، يذكر أنه كان معلماً مرحاً، عندما يريد أن يوقد الشعلة في مختبر الكيمياء كان يقول: هات ولعة يا ولد، ثم يضحك: نصكم يدخن بالسر. لازم واحد معه كبريتة.. يسارع أحد الطلاب لإيقاد الفتيلة..

في المهجع لا يتحدث الشكّيك عن نفسه، ولا عن غيره. بل لا يتحدث إلا مضطراً، وإذا تحدث يتحدث بصوت واهن يكاد يحو من ذاكرة عماد ضحكة شقيقه المرحّة.. لعل هذا الغموض دفع المساجين لإطلاق لقب "الشكّيك" عليه دون غيره من "الشكّيك" النصّابين أو الساذجين. فالتناس يتعاملون أحيانا مع ما أشكل عليهم بتغليفه بعنوان واضح.. لترويضه ربما، أو للنكاية به!

الشكّيك كان يبدو في الخمسين من العمر، هو طويل بائن الطول. ليس بدينياً ولا نحيفاً. شارب أسود كث، عالي الجبهة، أجعد الشعر. يميل وجهه للخضرة، يضع دائماً نظارة قاتمة على عينيه. باهت المشاعر. قليل الانفعال..

منحه هذا الغموض مهابة خاصة وضعته في مصاف شيوخ السجن! بعد الاعتصام صارت صورته أمام الرفيق أكثر بشاشة وشباباً وحماسة، وبدا في نهاية العقد الثالث من العمر..

داخل المهجع ظل التوجس جاثماً على الأنفاس.. اصطف طابور طويل أمام المبوّلة الداخلية. لم يشعل أحد بريموس، ولم يكلم أحد جاره، ولا فتح صاحب دكان صندوقه.. ففي كلّ مهجع دكانان: 1- البقالة وهي صندوق خشبي له قفل صغير يحتوي بضع علب من الفول والحمص

والسردين والتونة والحليب المكثف والبسكويت.. وباكيت أسبرين للصداغ، وعلبة فمليكس يطري المعدة .. 2- دكان الخرز: كيس بلاستيك كبير به أكياس صغيرة تحتوي على خرز صغير بألوان مختلفة، وخيطان، وصنارات، وإبر مختلفة الاحجام.. يضاف إليها لوازم الوشامين: أقلام كوبيا، كحل. صمغ. حزم إبر رفيعة وطويلة. ورق شمعي لرسم الوشم قبل طبعه على الجلد، فصناعة الوشم من المهن المربحة في السجن. أما المسابح والأطواق والمنسوجات الخرزية فهي مصدر رزق محترم؛ يبيعونها للزوار، ويرشون بها الشرطة، ويشترون بها مواقع أوسع لأبراشهم..

بعد أذان العشاء، دخل المأمير لعد المساجين. تمّ العد المسائي بهدوء.. بدأت النفوس باستعادة توازنها، وشيئاً فشيئاً دبت الحيوية في المهجع، وارتفع لغط خفيف ما لبث أن تصاعد مختلطاً بفحيح البريموسات التي هدرت تنضج الطعام، وتغلي الشاي..

نام المساجين كأنهم صرعى..

قبوالأخبار

بعيد منتصف الليل داهم الشرطة المهاجع مسلّحين بهراواتهم
وكلبشاتهم..

كان عماد ما زال يقظاً يداري وساوسه بتصفح الكتاب الثاني من تاريخ
الجبرتي لما خشخش قفل الباب..

انتبه. وقف مستنفراً من حوله: قوموا. أجونا..

وسرعان ما بطحه دركيان مقنعان. لفّا ذراعه بعنف إلى الخلف. ربط
أحدهما عصابة على عينيه، فيما ركبته تضغط على ظهره، وتكاد تقطع
أنفاسه، وثبت آخر الكلبشات في معصميه.. ولم يعد يشعر بما حوله..

صحا عماد من إغماءته مقلوب الحال.. تقياً.. أسعفته أشباح لم يستبن
إلا هسيسها.. وانتعش قليلاً.. سمع ضحكة القط، وهو يقول: القبو
منورٌ بضيوفه..

فح صوت الشكّيك: كيف صرت يا رفيق؟

قال: جوعان.

قال الكرزم: وانا هموت جوع..

توقف القط عن النطّ، وقال: يخسا الجوع..

أزاح حجراً في عمق القبو.. مدّ يده في العتمة وأخرج قرطاساً به كمشة
زيتون، وكسرات خبز يابسات.. ثم انطلق إلى زاوية أخرى، فأحضر

قنينة ماء ووضعها أمام ضيوفه.. وجلس يوزع كسر الخبز وحببات الزيتون..

كأنه المسيح في لوحة العشاء الأخير..

ياه، في حياتي لم أذق أطيب من هذا الزيتون، ولا ألد من كسر الخبز اليابس!

صحّة وهنا..(قال الشكّيك للرفيق)

قام القط يتمايل مثل خيال الظل ويغني:

يا مين يرجعني صغير وياخذ مالك يا دنبي
أوف أوف أوف وارجع إكبرع الهدا

سرت عدوى البهجة بينهم، فاصطفوا حول القط يسحجون الدحية،
والقط يحوشي بالوسط برشاقة وخفة..

هويدا ويدا لك يا هويدا ويدا لي

يا حلوة يللي ع الجبل ظلّي اضحكي و تدلّي

هههههه

فرطوا من الضحك. الضحك العالي الذي يرفع قبة القبو الصخرية
عالياً، ويستدر دمع القلب الصافي..

قال كرزم: الله يكفيننا شر هالضحك، ويعطينا خير.

قال القط: ويعطينا غيره..

قال الشكّيك وهو يشرق بضحكته: كان لازم يسموك كناري أو بلبل..

ردّ القط مترنماً: واغنم من الحاضر لذاته، فليس في طبع الليالي الأمان

ظلّوا يسخرون من الحاضر ولذّاته، يضحكون ويثرثرون حتى الصّباح..
لا يدرون أي وقت من الصّباح.. لكن باب القبو فتح موارباً، وأطلّ
طعام الفطور: بلوك خبز، وحفنة زيتون، وثلاثة أكواب شاي!.. تناولها
القط وقسمها بينهم بصفتهم ضيوفه!..
ازدردوا طعامهم واستسلموا للنوم صرعى..

* * *

لما لكزه القط ليصبحو لم يدرك أنه في القبو.. تذرّ واستدار متابعاً نومه.
همس القط: اصح يا رفيق.. اصح.
- هم.. شو يا قط.. لا تنام ولا تخلي حدا ينام؟
صحا. شعر أن جسمه مهدود، حرك أطرافه بجذر..
- فيق يا رفيق.. قوم.. أرضيّة القبو رطبة، والنوم الطويل عليها مش
كويس لعظامك.
نظر حوله بدهشة، رمشت جفونه ليعتاد العتمة.. وقف يحرك ساقيه،
فاضطر للانحناء قليلاً لأن سقف القبو قريب وغير منتظم..
- تعال هون عند الباب.. الرطوبة أقل. (قال القط)
جلس بجانب القط، وأسند ظهره إلى الباب الخشبي الثقيل..
- بدّي أقول لك شي..
ضحك عماد: شو!. فيه كُرمَة هون؟
ضحكا..
- بدّي أقول لك شي يا رفيق..

ضحك: قول..

- شايف الحجر اللي كنت مخي وراه الأكل؟

قال عماد: الحجارة مثل بعضها.

القبو عبارة عن مغارة صغيرة، جدارها المقابل مسدود بحجارة منتظمة!
ضحك القط: تفقدتها حجر حجر، شو وراي، على ايش استعجل.. لما
تزحزح الحجر.. احزر شو لقيت؟.. خفض صوته أكثر: لقيت
سرداب..

هتف عماد مندهشاً: سرداب! لوين يوصل؟

- زحفت. بعدين خفت اختنق ورجعت.. يعني أوله أمشي فيه
مقرفص، بعدين صرت ازحف على بطني.

- تفكر بالهرب يا صديقي؟

- دائماً أفكر بالهرب.

لمعت بذهن عماد فكرة: .. الرغبة بدخول القبو. هنا يستكشف طريقه
إلى الفضاء يوماً بعد يوم حين تكتمل الخطة! من هنا يرى حريته. يرى
عرزاله ودحنونه وصفرة البابونج.. وشجرة التوت!
شعر بخيط نور رشيق ينعش زهو الياسمين في صدره..

- بدك أهرب معك؟

ضحك القط، وقال: صح. مزبوط..

- من السرداب؟

- من الباب.

- أي باب؟

- الباب الرئيسي..

شعر كأنه يحاول تضليله: قطيط! لا تسرح في، انت تتسلل عند الباب الخارجي، وتعتمد تستفزهم تا يحطوك بالقبو.

ضحك القط: كلّ القصة وما فيها؛ لما يتعودوا يشوفوني بالمنطقة المحرمة، يطلوا ينزلوني ع القبو.. آه.. ولما يتعودوا يشوفوني هناك يطلوا ينتبهوا..

- ولما ما ينتبهوا..؟!..

- هيك، شي ليلة برد وشتا بمزط من الباب لتي بالشارع..

(لماذا ييوح بخطته..)

صفن عماد: حيرتني يا قط!

[لم يكن الأمير الصغير يعطيني التفسيرات أبدا، لقد كان يظني شبيها به. ولسوء حظي لم أستطيع رؤية الحروف في الصندوق. أظني أصبحت أشبه كبار السن قليلاً.. لقد هرمت.]

حسب خبرة القط في حياة القبو فإن الوقت صار المغرب.. فقد فُتح باب القبو مصدراً صريراً حاداً أيقظ النيام.. تناول القط من حارس القبو قصعة ألنيوم بها أرز تغشاه بضع حبات من الفاصوليا البيضاء، وإبريق ماء بلاستيكي كان في يوم ما أخضر اللون.. تناول الكرزم إبريق الماء. "زنقح" قليلاً. تمضمض.. ثم مد يده اليمنى فصب عليها قليلاً من الماء

ومسح وجهه. تناول الشكّيك الإبريق واستدار إلى الجنوب.. وهم بأن يتوضأ.. سارع القط فأمسك الإبريق! رفع الشكّيك حاجبيه مستنكراً.

قال القط: المي ما تكفي.

قال كرزم: ضروري الصلّاة واحنا على هالحال؟

استدار الشكّيك إلى الحائط "فطبطب" عليه براحتيه مثيراً بعض الغبار المعتم، وتيمم.. ثم صلّى المغرب والعشاء جمعاً وقصرًا.

هذه أول مرة يتناول الطعام المطبوخ في مطبخ السجن.. لكن الجوع أمهر الطباخين.. صار الأرز ينقص، وظلّت حبات الفاصوليا البيضاء تندرج من جهة إلى جهة.. كلّ واحد منهم يوفر التلذذ بها لزملائه..

قام أبو ليلي الشكّيك بتوزيع حبات الفاصوليا بينهم بالتساوي.

قام الكرزم يمشي هو والقط في المساحة المتاحة أمام عتبة الباب..

من الصّعب على الشكّيك وعلى عماد المشي تحت السقف الهابط، فانزويا في الركن تاركين مساحة أوسع لخطوات زميليهما..

لكل قبضاي وشمه الخاص. كرزم وشمه الأفعى.. وهي الشيء الوحيد الممطوط على جلده أما ما تبقى فكلّ ما فيه مربع؛ رأسه مربع، وجهه مربع، أنفه مربع.. وهو مربع القامة، متين البنية كأنه قدّ من حائط.. حنطي البشرة، شعر رأسه مثل كومة مسامير صدئة، له شارب أشعث كفرشاة مستعملة، جفن عينه اليمنى المتهدّل يوحى بالمكر..

القط لامع العينين، شعره طويل ناعم، يحفّ لحيته وشاربيه ويصبغ شعره بانتظام.. يبدو وهو ابن الستين أصغر من كرزم الذي لم يجاوز الثلاثين من العمر!

القط يمشي صامتاً..

الكرزم يتمتم بلعنات دارجة، ختمها بسؤال زميله القط: وين سارح يا القط؟ مزاجك اليوم مش مثل امبارح؟!

لم يجبه القط، بل كتف ساعديه، وترجع قدام الشكيك، وقال: عللنا يا بو ليلي..

ضحك الشكيك.. (ربما كان ممتناً للقط لأنه ناداه بلقب نادراً ما ينادى به هنا!) وقال: فيه حدا يحكي وانت موجود؟!

تنحج القط، وقال للكرزم: أقعد يا رجل، حولتنا وانت رايح جاي.

جلس كرزم، عقد القط يديه على ركبتيه، وراح يقص:

كان يا ما كان.. كان فيه قرية اسمها اليونان.

أهلها شاطرين ويفهموا، ما خلوا شي ما سألوا عنه، وكتبوه..

كان ربهم اسمه زيوس، وكان يباهي بعلمهم أرباب القرى البعيدة..

لكنّ اليونان زادوها، وحطوا راسهم براسه. وقالوا: مين هو زيوس؟ بدنا نعرفه.

فقام زيوس لبس زيّهم، ونزل يتحداهم..

صادف شاب أول طلعتة، يعني قدك يا رفيق.. سلّم عليه، وسأله:

صحيح انتو تعرفوا كلّ شي؟ قال الشب باستظراط: تفضل اسأل..

سأله الرب: بتعرف وين زيوس؟ تطلع الشب لفوق، ونظر لتحت..

رفع عيونه بالزلة اللي قدامه، وقال له: دورت بالسما ما لقيته، وفتشت
ع الأرض ما لقيته.. الرب واحد من اثنين يا أنا يا أنت! غضب الرب،
وحط كفه تحت القرية اللي أحبها، وقلب عايلها سافلها.. تهدمت
مبانيها، وطارق أوراق أهلها بالهوا.. ووصلت القرى البعيدة، فقروها
الناس، وتعلموا منها..

من يومها كلّ الفهم اللي بالدنيا أخذوه الناس من الورق اللي كتبوه
اليونان..

ساد الصمت! وراح عماد يفكر: من أين أتى بهذه القصة؟ هل هو
قاريء جيد، أم هي مجرد حكاية برتها الألسن حتى وصلت هذا القبو
الترابي على هذا النحو!..

توسّد الشكيك حذاءه، وتمدّد.. هذا الآخرون حذوه.. وناموا.. الوحيد
الذي وجد نفسه هنا حافياً بلا مخدة هو عماد!.

يشعر عماد أن هذه العصبية من البشر الخطائين تمتلك القدرة على
التضامن، والمزاحمة، والصمود، أكثر من النخب المثقفة، والأحزاب
المقموعة..

الشكيك هادئ بطبعه، لكن غموضه تكشف عن رجل شجاع، مبادر.
كرزم محكوم سبع سنوات بقضية سطو: كسر وخلع، لكنّه ثعلب حذر.
متربص.. صديقي القط رائع وهو يحطم ببساطة طفل كلّ ما يفرض
إطاراً لروحه..

هذه الأفكار طارئة على منظومة مسلماته المريحة..

- نظرتي النقدية قليلة عن معاينة الواقع كما هو.. الابتعاد قليلاً يتيح
لي رؤية الفيل في بطن الأفعى، والخاروف داخل الصندوق!

في هزيع من النوم أحسّ عماد بدفء جسد في حضنه! صحا على الكرزم يتلوى دافعاً ظهره نحوه. شعر بخرج بايخ، واستدار جسمه جهة الشكّيك. الشكّيك يغط في نومه بعمق. ما لبثت المسافة بينه وبين الكرزم أن تلاشت! كنتم أنفاسه البيض، بل انكتمت أنفاسه توجساً، هل الكرزم يتقصّد ملامسته؟

التصق ظهر الكرزم بظهر عماد وشعر بيد كرزم تمتد وتعبر وسطه باحثة عن.. هل يحلم الرجل؟.. فزّ عماد هاتفاً: كرزم! استيقظ القط: خير فيه شي؟

كان كرزم قد انزاح قليلاً متكوراً على نفسه.. وبدا كأنه يغطّ في نوم عميق.

بلا تفكير مسبق هتف الرفيق: كلب..!

لم يقل القط شيئاً، فرد فردي حذائه، وأشار للرفيق أن ينام من جهته. لفّ فردة حذاء القط بقميصه، توسّدها وتمدّد.. لم ينم.

ثمة سلوكيات يحاكمها العقل. فيرفض أو يتفهم. يدين أو يبرر. ينذر أو يعذر؛ وعلى الجسد أن ينصاع.. وثمة أشياء يشعر بها الجسد فيكبت ويتظاهر، أو يبحر في مسار آخر معانداً العقل والمعقول.

للجسد سلطانه إذا أشار أو رغب أو تعب، وله غواياته إذا رقص أو انتشى أو طرب.. وللجسد حدسه بالمرسات، وتوقه للتحرر، وغلوّه في الانفلات.. لولا أن العقل لجام!

هل الجسد من طين حقير، والعقل من نور مبین؟! هل الجسد معصية، والعقل معرفة؟!

معرفة العقل ناعمة يسهل خدشها ونسيانها، ومعرفة الجسد نقش معجون بالرغبات، مدموك بصخب التجارب..

.. لسرّ ما يعاقب الجسد مجريرة العقل! فقد تُسلط عليه لسعات السيّاط، وقد يقضي سنوات في ظلمة السجن.. ذلك أشبه بالساحر الذي يهوي بهراوته على جسد المسوس لطرده الجن.

الجسد متسامح حنون. دائماً يغفر زلات العقول، ويتحمّل الأذى، ويقبل تحمّل المرض والحرمان والسجن، لكنّه في لحظة ما ينسحب من اللعبة وللأبد.. ويتركنا معلّقين في الفراغ!

عدّل عماد فردة الحذاء تحت رأسه. فرد جسمه محمّلاً بشفافية العتمة.. إنه يحنّ إلى مخدته. يحنّ إلى برشه. يفتقد همهمة وغطيط المساجين في المهجع!.. آه ما أسرع ما تضيق الرغبات.

يقطّر القبو برد الهزيع الأخير من الليل فيذكرّ الجسد بالدفء.. بالضبط دفء جسد قريب. دفء الكرز وهو يتململ؟! يتساءل الرفيق: هل الكرز..؟ لم يشع عنه ذلك. رغم أن هذه الإشاعة تلاحق الكثيرين من النزلاء من كافة المستويات والأعمار!..

سبق أن سمع عماد عن وسائل استدراج "المستجدين" للغواية: يغري اللوطي طريده المستهدف بملاطفته، ويسمح له، بل يغريه بأن يلحس على مؤخرته حتى ينتعظ، فيداعب العُثْل عضو شريكه بمحنة حتى يفيض، ثم يطالبه بردّ الجميل.. وهكذا خطوة خطوة حتى يصطاده في ملعبه!

انقلب على جانبه مديراً وجهه باتجاه القط. نصف وجهه غائر في فردة الحذاء. النصف الثاني غارق في الهدوء. جسد القط الناحل يتمدّد على بعد سنتمترات قليلة. بوده لو يقترب.. يتأمله بمحبة. شعر خلايا جسمه

تتوق للاقتراب أكثر. استيقظت شهوة خمرية داخله. رغب بدفعه. اكتست أنفاسه بزغب أحمر. وكاد يزحف باتجاه القط.. في لحظة وميض أزرق، انقلب إلى الجهة الأخرى باتجاه الحائط.. بلل كفه بلعابه نفص سمه، وغفا.

استيقظ على صوت شجار!

أبو ليلي الشكيك يمك بخناق الكرزم، ويصفعه: يا وسخ. يا واطي.

- هو عبطني من ورا، والله ما..

- تعبطك هاه. (وصفعه مجدداً..) بدكو توسخوا أنبل واحد بها السجن يا عكاريت.

يبدو أن القط وشى للشكيك.. تدخل الرفيق بينهما.

- خلص ما صار شي يا بو ليلي.

- ما عليك انت.. (وصفع الكرزم مرة أخيرة): بعرف نجاساتك يا واطي.

تملص كرزم من قبضة الشكيك، وأدار وجهه جانباً، وقال:

- وانا بعرف مين شمت المأمور اللي اسمه..

انقلبت سحنة الشكيك.. وارتجف حنكه غضباً.. رفع قبضته بتصميم وحنق ليسحق الكرزم. لكن الباب فتح في تلك اللحظة، وبقيت قبضة أبو ليلي الشكيك معلقة في الهواء..

لم يدخل طعام الإفطار، بل قال الشرطي: تعالوا كللوا.. اطلعوا.

انقلاب

طلعوا..

غابوا ليلتين عن السجن وشؤونهم؛ لكن أشياء كثيرة تغيرت!.

تحقق مطلبهم؛ وصار المساجين يؤوون إلى مهاجعهم عند أذان المغرب!
تبدلت الياقطة المربعة السوداء على باب السجن المكتوب عليها بخط
الرقعة "سجن إربد" بأرمة زرقاء كبيرة مستطيلة مكتوب عليها بخط
النسخ:

[المملكة الأردنية الهاشمية / مديرية الأمن العام / مديرية مراكز
الإصلاح والتأهيل / مركز إربد للإصلاح والتأهيل]

علّق الخيار محتجاً: إيش يعني؟ إحنا معاقين!.. إذا مستعربين من كلمة
سجن يسمّوه بيت الخالة.. مش لما يسجن واحد يقول عنه الناس راح
لبيت خالته!

دخل السجن نزلاء جدد.. وأُفرج عن آخرين؛ دخل السجن قبضاي
اسمه أبو القناني سبقت سمعته إلى هنا، وأُفرج عن الشكّيك فجأة دون
أن يُشبع فضول أحد ببيان علّة سجنه، ودون أن يُعرف سبب الإفراج
المفاجئ عنه!..

أُحيل الحاج ملقي على التقاعد، وحلّ محله عطا الله بيك في إدارة
السجن!.. ترفع الشاويش حيدر إلى وكيل ضابط، ونقل إلى مديرية
السير، واستلم البوابة الداخلية الشاويش يونس!

صار مصيص شاويشاً للشرقي بدل وطوط. وانتقل عسّاف شاويشاً للقّاوش الشمالي بدل الكرزم، وظل أبو حديد محتفظاً بمربعه الذهبي في الجنوبي!

عوقب كرزم بالجلد في وسط الساحة لأنه قال: تبدلت غزلانها بقروء.

وتقرر نقل الرفيق من الجنوبي إلى الغرفة البيضاء!..

لكن الرفيق لا يحب هذه الغرفة.. يشعر كأنه نفي إلى جزيرة نائية!..

اجتاز ظرفتين خشبيتين خفيفتين، تعلوهما مظلة من الزينكو، الباب طلي بالأبيض تمييزاً له عن باقي أبواب السجن السوداء ذات المحور الواحد..

يا للترف!

زملاؤه الأفندية والبهوات السبعة لا يرحبون بوجوده بينهم!.. انشغلوا عنه بمتابعة التلفزيون الصّغير، امتيازهم الخاص الجالس على رف في الحائط الغربي بجانب الباب..

بعد ما فرد برشه، تشاغل عن تلفازهم بتقليب صفحات كتاب البدوي الملثم عن عرار دون أن يقرأ حرفاً..

وششششش.. وششششش.. وششششش.

انقطع البث.

خلال فاصل اعتذار عن خلل في على الشاشة الصّغيرة تنحنح شاويش الغرفة المدعو حشيش، مضيقاً عينه اليسرى، وسأل: شو صرت موالي للحكومة يا..؟!

رفع الرفيق عينيه عن الكتاب، وسأل بعبط: أي حكومة؟

- هيء هيء هيء ..

ضحك الرجل، وقال: الحكومة اللي حكمتك عشر سنين.

ضحكوا شامتين..

تنحج علاء الدين ملبورو، وسأل ساخراً: بتفهم في السياسة؟

قال الرفيق بجديّة: شو الموضوع اللي يهملك؟

فتأثأ ملبورو مرتبكاً، ودارت عيناه بمحجريهما حيرة: السياسة يعني السياسة.. مش انت معتقل سياسي!

علّق أبو زكي كناري: في جزر الكناري ما حدا يهتم بالسياسة.. خمر ونسوان وفت مصاري. هناك ما فيه سياسة.

تبرع حسن ترانزستور بإكمال الحوار، دفع وسط نظارته بسبابته، وقال بجديّة: شو راياك بمؤتمر جنيف؟

أجاب كتلميذ يقظ: فلسطين يحررها النضال ما تحررها المؤتمرات.

علّق معاليه هازاً لغده الورددي: شاطر والله.

فضحكوا مجاملة لمعاليه..

أبو جميل المهندس، أو أبو جميل الماصورة، وهو أحد خريجي موسكو الحمراء، يقال انه كان شيوعياً متطرفاً هناك، لكنّه ينكر ذلك ويستنكره، قال وهو يمسح شعره الذي بلون الألمنيوم:

- لكن الاتحاد السوفييتي العظيم هيء هيء.. موافق على مؤتمر جنيف جديد.

* مؤتمر جنيف 1974م لكنه عاد ليتصدر الأخبار لأن الرئيس كارتر دعا لإحيائه.

رد الرفيق: ونا مالي.. لكته شعر بالحرج في داخله وكأنه مسؤول عن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي.

هتف أبو زكي كناري ماداً ذراعه إلى مداها باتجاه تلفزيونه المنشغل عن هذرهم بوشيشه: بدنا نظل نستنى.. قوم يا ولد حط ع الشام.

قام الطج يبحث عن محطة الشام تحت وابل من إرشادات المشاهدين.

يشعر الرفيق بحرج مبهم، لا يرغب أن يصير ثامنهم.. بالضبط هو ليس ثامنهم، هم ستة وخادمهم. موقعه هنا بين السابع والثامن.. بينه وبين عتبة الباب ثامنهم: الطج..

كل مكان يشتق رائحته الخاصة، رائحة الزنزانة بول ودم. رائحة السجن سناج ود.د.ت، رائحة القاوش فساء بشري وبصل مقلي، رائحة القبو تراب معتق وعطن الرطوبة، رائحة الدار البيضاء تبغ وشواظ شحم حيواني..

الغرفة مربعة الشكل. مسقوفة بالخشب. لها شباك شرقي. وخزانة غائرة في الحائط الجنوبي. أمامها باحة صغيرة في زاويتها الشمالية مرحاض ومغسلة وحنفية ماء مزروع بجانبها شتلة ريحان، ونبتة سجادة خمرية اللون.. في الزاوية الأخرى جرة ماء، ونتوءات حجرية توضع عليها أدوات الطبخ..

ربما بسبب هذه الإضافات سُميت مجازاً الدار البيضاء..

ليلته الأولى في الغرفة البيضاء أرق!

تجافيه المخدة.

لما سمحوا لأبيه بزيارته في مبنى المخابرات، قالوا له: ابنك شيوعي كافر. قال لهم: كافر!.. هاي لرب العالمين يحاسب عليها.. شيوعي؟ هاي سياسة. انتو وياه تصطفلوا عليها، لكن اليد اللي تنمد على ابني بكسرها..

توقفوا بعد هذه الزيارة عن ربط رسغيه بكوة باب الزنزانة.. بل كفوا عن الإيذاء الجسدي دفعة واحدة!

هل الثقل العشائري يخفف ثقل القاوش..؟

هل يحاولون عزلي عن جمهرة المساجين؟

في المنام رأى نزلاء الدار البيضاء على هيئة ضباط أمن يتحلّقون حول مائدة كبيرة يتداولون في أمره وهو تائه في الوسط.. صحا مكتئباً جافّ الفم.. قام يشرب ماءً.. باب الغرفة مفتوح على ضوء القمر.. القمر يضيء هواجسه بشراسة، فيهرب للتحديق بتفاصيل الساحة وهي خاوية..

جنوباً نافذة المطبخ. إلى جانبها غرفة "الأحداث" أي الأطفال الجانحون. بجانب "غرفته" القاوش الشرقي. أو قاوش المهرين.. وهو أوسع، وأحدث مهاجع السجن. يقال انه بني بعد أيلول الدامي عام 1970م..

الضلع الشمالي من السجن يتكون من الحمامات والمغاسل والمراحيض والقبو الذي تعلوه بوابة طوارئ شمالية صغيرة الحجم مغلقة دائماً..

مال إلى مخدته الناعسة يفكر.. هل تَوَقَّعَ سنان باشا وهو يصمم مباني العثمانيين وقلاعهم واصطبلات خيلهم أنها ستصير مهاجع للأحزان!..

توسّد مخدّته عنوة، وهمس: في الصّباح سأطلب من الإدارة إعادتي إلى مكاني في الجنوبي، وإلا.. وإلا سأقدم بالاستنكار.. واخلص!!

كوبيا

طلع الفجر، الوقت الشجي العزيز على النفس..

يخرج "الأحداث" مدججين بمكانسهم الطويلة ودلائهم البلاستيكية، يشطفون الساحة.. ثم يختفون فجأة. وقتٌ للصمت. يا لجلال اللحظة. يحبُّ ساعة الفجر.. هي له في هذا الجزء الصَّغير من الكون، وما يتمناه الآن أن لا يعجلوا بفتح الأبواب، حتى ينعم بمزيد من السكينة الصَّباحية..

أشرقت الشمس. فرح بحزمة أشعتها العابرة من فسحة في الشباك.. توهج مع ذرات الهباء في حزمة الضوء الذهبية، وتبعها إلى حافة الشباك المُعْبَر.. أصغى إلى ضجيج استيقاظ المدينة. تشمم الرائحة المازوتية لعوادم السيارات التي تصعد التل. وضع عينيه بعين الشمس..

- حرريني أيتها الشمس من ترف الغرفة البيضاء.. ما من أحد سواك قادر على انتشالي من هنا خفية عن أعين الحراس.. خذيني أيتها الحرة مع شعاعك المنسحب إلى فضائك الشاسع!

أنهت الشمس زيارتها القصيرة لناذته. سحبت آخر خيوطها الذهبية، ودبت الحركة في باحة السجن. خرج إلى قهوة الطموني.

- أحلى فنجان قهوة للأفندي..

- ما بدي قهوة يا طموني. بدي شاي.

"الأفندي"!.. لم يُطربه اللقب الجديد، واستعجل ارتفاع الشمس كي يتمكن من محو هذا اللقب عنه!.. طلب من يونس مقابلة المدير الجديد.

ناولہ الطموني کاس شاي طازج وساخن.. شربه على مهل، شربه على طريقة شرب "الزقراط"؛ شفت منه شفطات طويلة متمهلة: يفففف، وأتبع كل شفطة بتنهيدة: إحصح، لكن هذه الحركة لم تقرّبه منهم. قام يحوم الساحة أفندياً مُنبتاً غريباً عن المساجين الذين غادرهم، منبواً من "نخبة السجناء" الذين حلّ بينهم!

استدعاه عطا الله بك..

البيك رجل جهم. مكور الرأس. أكرت الشعر. له أنف ملموم، وفم صغير، وعينان عاديتان؛ لكن هذه التفاصيل ضائعة في سمرة وجهه الشاسعة.. حقاً إن وجهه مثل قفا صاج الخبز!..

قال البيك بلا موارد: نقلناك للدار البيضاء مشان تعقل..

تحسّس عماد ورقة "الاستنكار" المطوية في جيبه، وقال: لكنني مرتاح في الجنوبي.

كأنه لم يسمع. كان متحمساً لمهامه الجديدة.. راح يثرثر مستعرضاً أسلوب إدارته "الحديث" الذي ينسجم مع مفهوم الإصلاح والتأهيل:

..المساجين عندي سواسية كأسنان المشط.. ما فيه عندي كبير غير سيدنا.. اعتصامات وإضرابات وغردة ما عندي.. الرحمة تخص والغضب يعم.. وغمز بشكل غير مباشر من إدارة الحاج ملقي: (سياسة دقة ع الحافر ودقة ع المسمار) أخذها الحجي معه الله يسهل عليه. زمان أول حول.. إدارة الدقة القديمة انسوها..

اتا بدي ارجع للقاووش.

القاووش! ههههههههههه

ثم قطب وصرخ: اختر الدار البيضاء أو القبو؟
رد عماد بلا تردد: القبو.

جحره البيك جحرة وطنية عارمة، جعلها قاسية قدر الإمكان.. وهتف:
- فشرت. أنا قراراتي ما تنزل الأرض.
قرع الجرس. حضر شرطي مخطوف اللون. أذى التحية، وتهياً.
قال عطا الله: كلبشوه، وأرجعوه ع الدار البيضاء..!

نام ليلته الثانية في الغرفة البيضاء مكلبش اليدين.. لكن مخدته صارت
حنونة، تمددت شجيرة الياسمين يانعة خضراء في روحه، ونام بعمق.
قال لنفسه: لا أحد يا رفيق سيصدق أنك كنت تعود من ساحة التحقيق
إلى زنانتك مدمى وسعيداً.. إلا من عاش التجربة!.. لا أحد سيتفهم
فرحك بأساورك الليلة إلا مخدتك!
هل انا سوي!

في الصباح توافد المساجين يتفرجون على نزيل الدار البيضاء "المكلبش"..!
خرج الرفيق وجلس في الباحة الخارجية مقابل زير الماء.. جاء أبو زهرة
يتأبط صندوق الشطرنج الذي لا يفارقه. سلم عليه، وصار يبكي..
عساف غضب غضباً شديداً: (يفضح خواتهم أولاد شغموطة).. وهدد
بأن "يشكيهم! للباشا.
وطوط، شاويش الشرقي المعزول شدّ على ساعده، وقال مؤازراً: ولا
يهمك.. شدة وتزول.

لوى كرزى شفته السفلى غاضباً، وقال: بسيطة.. الجايات أكثر من الرايحات.

جلس الختیار بجانبه دون أن تكف أصابعه عن ختم آخر غرزة في طوق الخرز، وقال: نقلوك حتى تتعود. خليك جدع.. ثم مدّ يده مقدّماً طوق الخرز إلى عماد: هديّة مني.

عقدّ باهر منسوج بالخرز الملون الناعم بتدرجات قوس قزح.. قلادة في غاية الدقة والإتقان..

قال عماد: ولكن..

لم يقل ما يفكر به.. (ما حاجتي به؟ لمن سأهديه؟..)

- الهدية ما تترد يا رفيق.

جامل الختیار بتأمل ما صنع، وشكره..

أحبّ عماد الختیار..

الختیار محكوم مؤبد، أمضى عشرة أعوام، وبقي عليه عشرة.. يقول انه كان مضطراً لقتل الرجل! وبدا هذا "الاضطرار" مقنعاً للرفيق اليوم أكثر من أي وقت مضى..

عند الضحى قطع القط عمله، وجاء إلى صديقه..

المفارقة بين نزيل الدار البيضاء المبجل، و(العيل المكلبش مثل الزعران)؛ فيها من الطرافة ما أضحك القط حتى وقع على الأرض هامساً: هذا البيك مهستر.. ثم انزوى إلى جانب الرفيق، وهمس له: أبو حديد قال؛ باعنا الرفيق.. أبس الختیار بهدله.. ثم خرّمش صوته مقلداً الختیار

(وحد الله يا زلمة)... الكرز م علّق على جيتك للدار البيضاء؛ (ناس عز وناس معزى)..

ضحك عماد: فُكُنّي يا زلمة من القال والقليل..

قال القط: أشعل لك سيجارة؟

- لا

همس القط: جبّلتك كمشة ياسمين..

- كمان انت بتحب الياسمين؟

- بخاف من ريحته.. مش متعود هههه انا بـجب الدحنون..

- الدحنون؟

- الدحنون لون واحد، أحمر أو أحمر. الدحنون زاهي ومتواضع. يطلع وين ما كان: بالسهل، بالجبل، بالحارات، ع السناسل.. إن قطفته يذبل، وان تركته يكثر.. عمرك شفت حدا زارع دحنون، أو يبيع دحنون؟ هههه عمرك شفت دحنون محبوس بغرفة، أو مربوط بباقة؟ الدحنون حر..

ضحك عماد: قط وفيلسوف!

ردّ القط بمزح: قط وحرامي. قط وسباك. قط ومهرج. قط و..

تابع ملبورو ساخرًا: قط وعصفور..

ضحك القط: يا ريت أصير عصفور.. وأطير.

تدخل الطبخ: قصده واشي. يعني عصفور من إياهم هاهاها..

انكمش القط بجانب عماد كمن أصيب بسهم..

رمى عماد ذراعه على كتف القط وصمت..

أثار قرار البيك المتسرع تعاطف المساجين مع الرفيق؛ بقدر ما أثار جفوة سكان الدار البيضاء..

نظمي حشيش كان ضابطاً كبيراً في مديرية مكافحة المخدرات، سجن لأنه (خسارة.. بضاعة بالألوفات تروح حريق).. وهو هنا يجب أن يدخل النرجيلة مساء وهو يمشي.. فكان يسير في ساحة السجن وخلفه خادم اسمه الطج يحمل له "الشيشة" يقيب بها الماء المطعم بأوراق الغار، وينفث الدخان بغطرسة تليق بجنرال!! يخفي صلته بكوفية وعقال، ويرتدي دشداشة بيضاء تداري كرشه البيضاءوي، ويحمل سبحة زرقاء فاخرة تلائم وجاهته.. ويتلهف على أيام عزه بأن يداوم على انتقاد (شرطة هـ الايام).. موضوع انتقاده اليوم هو الرفيق.. شدّ خيط مسبحته فانتصبت مشيرة نحو الرفيق.. (كيف يكرموا واحد لا عنده ولاء ولا انتماء، ويخطوه بالدار البيضاء!..)

حسن ترانزستور، حجمه ترانزستور، وحذاؤه ترانزستور، ونظارته ترانزستور. وصلبيه الفضي على صدره ترانزستور.. ما عدا شاربه الأشقر كثر وعريض. كان موظفاً في دائرة ضريبة الدخل، يصنف نفسه بعثياً، فقط لأنه خريج العراق، لذا فهو يهتم بالشأن العام، ودائماً يرفع عند أذنه راديو ترانزستور بحجم الكف، وموقفه ضد الرفيق "أيديولوجي" وليس شخصياً.

سأله عماد: شب جامعي بأول طلعتك لسه ما عركتك الحياة شو مورطك بالرشوة؟

- يا أخي والله ما كانت بنيتي، ولا مفكر فيها، لكن رحت أنا وواحد من عتاعيت الدائرة نقدر ضريبة الدخل عند تاجر كبير.. ونحن طالعين، قال التاجر: هات مفتاح سيارتك. قلت: ما عندي سيارة. قال: أعطني عنوان بيتك. أعطيته.. فكرت براديو. مكوى كهريا.. تلفزيون في أحسن الأحوال. لما روحت، وأجا الطرد، لقيت فيه خمسة آلاف دينار! سخسخت..

اشترت سيارة وتلفزيون وثلاجة.. وظل معي شوي. بعدين صرت أروح ع التجار أطلب بلساني..

قاطع ملبورو: دخلك شلون توظفت بضريبة الدخل؟ على علمي البعثيين مثل الشيوعيين والتحريريين ما يوظفونهم، وتحجز جوازات سفرهم..

صمت، ولم يجب. زادها عليه، وأضاف: إلا إذا صرت تشتغل عند الجماعة..

لكز حسن طرف نظارته بظاهر كفه المضمومة، وفتح فمه ليقول شيئاً.. ثم بلع الملاحظة، وصمت.

هنا أيضاً شيوعي سابق هو المهندس أبو جميل الماصورة. وهو خمسيني طويل نحيل أسلت، ذو رأس مثل دورق ألنيوم لامع، يحفّ ذقنه وشاربه ليبدو أصغر سناً. هل يشبه الماصورة!.. ربما.

المهندس متهم بالاختلاس والتواطؤ مع شركة خاصة في صفقة مواسير لسلطة المياه، أما روايته هو فكانت تتلخص ب: (يا رجل نقص المورد كم ماصورة - يلفظها بالصّاد - حبسونا احنا!!).

المهندس كان مهتماً بالبرستيغ.. نظر إلى معاليه بتزلف قائلاً: هزلت.. صاروا يجيبوا عندنا من هب ودب!

أما الجمركي السابق السيد علاء الدين ملبورو (هل اتضح سبب سجنه؟) فأبرز ما في وجهه فمه الممطوط للأمام وكأنه ينفخ على شيء ما. وفوق هذا البوز أنف حاد طويل، وتحت البوز دقن حادة، وتحتها تفاحة آدم تكاد تقفز من رقبتة النحيلة الطويلة. حقاً طلته تشبه حرف دبليو على باكيت الملبورو! أما سبب نكده: ما فيه وسع يا بو نظمي. غرفة كلها أربعة متر بخمسة متر. شو؟.. صارت قاووش!.

ثمة رجل أربعيني، يبدو دائماً مستحماً للتو، فهو مسؤول الحمام هنا، لكنّه غير أنيق في ملبسة.. جاكيت مربعات على دشداشة مدعوكة، أو بنطلون وقميص وقرافة بلا جاكيت، سترة بسحاب على سروال كاكبي. صلعتة دائرية تماماً مثل طاقية. له سكسوكة متصلة مع شاربه وتتلاءم مع شكله الدائري. وهو دائم الابتسام كسمسار يستثمر البشاشة. كان يعمل سمساراً - وما زال - باع أرضاً لا يملكها في عمان الغربية، وذهب ليصرف ثمنها متنزها في جزر الكناري، وعاد ليقتضي عقوبته سنة في السجن.. مقايضة حسبها سلفاً، وارتضاها ونفذها بكامل رغبته.. فاكسب لقبه عن جدارة: أبو زكي كناري.. يسجل له قصب السبق بأنه أول من أدخل التلفاز إلى السجن..

نظر إلى الرفيق، وكتفاه تهتران من الضحك: ها ها ها.. يمكن بداركم ما فيه تلفزيون.. يا الله تفرّج ع حساب الأجاويد.

معاليه يلقب هنا ب"التنبل"، ولا يستعمل هذا اللقب بحضوره، سجن بتهمة إصداره وثيقة مزورة!.. ينظر إلى سقف الغرفة الخشبي مدوراً شفتيه المكتنزتين الرطبتين مثل شقي تينة ناضجة، ويرسل دخان

سيجارته الكنت على شكل دوائر منتظمة. ويقول: والله كنت بفكر
حالي بقدم خدمة لسيدنا، طلعت غلطة العمر..

لكنّه لا يفسر أبداً ما هي الخدمة، وكيف حسبت ضده غلطة لا تغتفر!
دلّى لغده الزهري، وواصل نفخ دخان سيجارته مترفعاً عن تبرير
اشمئزازه من حضور الرفيق.

رغم ما تقدم، أو بسبب ذلك تضافرت جهود نزلاء الدار البيضاء
بالضغط على (صاحب أسنان المشط)، فأمر بفك قيد الرفيق.

جلس على برشه طليق اليدين. وتشاغل عن مبغضيه بالرسم.. هرب
من سحناتهم المغمومة إلى وجوه أصدقائه الأليفة.

أبو حديد متهور الطبع. رّمّام. يضمّر الشر بقلبه. كالضبع، إذا ردعته؛
يزعزع الفضاء بقعقعته. القط روح حرة وجدت نفسها في قفص.. أو
قطّ يلحم أنه طائر غريد في فضاء شاسع! الختیار عاقل. صبور. وهادئ..
جمل؛ عندما يستفز يصير صعب المراس. عسّاف ناعم. أملس. وتتوهم
أنه بين يديك، وإذا به ينزلق إلى الجهة الأخرى. نابه متحفز مثل أفعى..
كرزم ثعلب متربص. يضرب ويختفي بسرعة. يجيد التناغم مع بيئته.. أبو
زهرة ضعيف مذعور مثل السحلية، يخاف كلّ متحرك..

ثم توقف عماد عن الرسم متسائلاً..

- أنا من أنا؟ ليتني أعرف!..

الدار البيضاء

هل هلال شهر الصوم وصار عماد من أصحاب "العفش"، استبدل برشه
بفرشة صوف ولحاف ومخدة جاءت من البيت..

- ما ألد رائحة الأم الكامنة في الشراشف المغسولة..

اختنق بعبرات الحنين..

- أحبك يّمه. دموعي تسحّ حنيئاً لدفئك. ساحيني يّمه، وحدك تحتسين
جحودي وفاء مؤجلاً، وترين في نقصي كمالاً. وتلهجين باسمي مع
تسايح الفجر..

صار له رفّ يضع عليه كتبه.. دلّل نفسه فصنع إضاءة خاصة مكونة من
أسطوانة كرتون مدلاة بجانب فراشه داخلها (لمبة) تضيء له "كنّاشه" لما
ينام السادة.. خط عليها بخط كبير

..konnash bulb

توطدت العلاقة بين قلمه الكويبا والمخدة. مايدونه قلمه يناقشه مع
المخدة، وما تهمس به المخدة يفزّ ليدونه..

الأيام كفيلة بالآلفة والإيلاف.. ألفته الدار البيضاء، وفسح له "التعود"
حضوراً خاص في الفجوة بين خلاقات "النخبة"، وتحالفاتهم المتغيرة
دائماً..

تقبّل السجناء التدخل الفج للمدير الجديد في شؤون حياتهم، ورحبوا
بحضور شهر الصوم يكسر تكرار عاداتهم، ومواقيت تعودهم، وعشق

عماد حزمة شعاع الشمس الصباحية تسقط على مخدته، وحشجة مكبر الصوت تعلن فتح المهاجع، فيطغى ضجيج السجن على صوت محركات السيارات الصاعدة إلى التل..

تعود رائحة غليون البشهندس، ودوائر سيجارة الكنت ينفثها معاليه، وسعلة حشيش وهو يدخن النرجيلة، وطاقات مسبحة السيد ملبورو، وسماجة الخادم الطيج.. وصار يستمع لراديو مونت كارلو مع حسن ترانزستور، ويحتلي مع فيروز في الصباح، ومع أم كلثوم في المساء ملصقاً الراديو الصغير على أذنه، وإذا لم يكن هناك رقيب يسمح لدموعه أن تسح دون أن يدري لماذا تسح. لكنه يستمتع بذلك..

في الصباح يقرأ الصحف اليومية بمعية معاليه.. وفي الليل يتفرج على التلفاز تحت منية أبو علي كناري..

انحرق هلال شهر رمضان، وانتصف شهر أيلول، وصار الليل مطعماً ببرودة حنونة..

بانتظار إعلان رؤية هلال عيد الفطر الذي يحير المسلمين كل سنة، ويحتلفون عليه دائماً، راح يتصفح ديوان "عشيات وادي الياض"، فاستوقفته هذه القصيدة التي يعتد غلاة الأرادنة بريادتها لشعر التفعيلة..

هلّ الهلال.. فمن منكم رأى طيفه

قبيل تقدم السجنان يوحد كوة الغرفة

لقد عم المساء ولّفت آفاقنا سدفة

وحيانا وجوم لم يزل يعتادنا من ليلة الوقفة

ومزق صممتنا قيد ثئاب موقظاً رسفه..

يبدو أن المهم ليس القراءة، بل إعادة القراءة!..

تخيّل عماد الشاعر عرار" مثلاً مع قصيدته ليلة عيد الفطر، يكتب بيده اليسرى من اليمين إلى الشمال، تصوّر "عرار" أعسرَ مع أنّ أحداً لم يقل عنه ذلك..

صوت "غرامفون" ناءٍ في مكان ما حول تل إربد يطلق صوت أم كلثوم:

حديث الروح للأرواح يسري..

وتدركه القلوب بلا عناء.

هتفت به فطار بلا جناح ..

وشق أنينه صدر الفضاء.

هل هو صوت غرامفون من زمن عرار، أم راديو ترانزستور يحمله حارس ضجر؟!..

- أنا على قمة تل إربد سجيناً، وعرار الذي سجن هنا قبل خمسين عاماً على السفح رفاة..

حاول رسم بورتريه لعرار، رسمه أسود العينين، حادّ النظرات، يبدو في مطلع العشرين من العمر، بسيط المظهر، قليل العناية بهندامه، بريئاً من التكلف إلى أقصى حد..

نظر الى الرسم بغير رضى.. داهمته موجة سوداوية من الأسى الكرّار التي تلم به وبغيره من السجناء بمبرر أحياناً، وبلا مبرر أغلب الأحيان.. بكى بلا سبب واضح.. قام إلى بنطاله المعلق على مسمار فوق رأسه. نبش جيوبه، أخرج ورقة الاستنكار. قرأها..

أستنكر: الإذاعات العربية تغصّ ببيانات الشجب والاستنكار.

أعلن ولائي: لم يفكر ب. ولا سمع أحداً من الرفاق يتعرض للملك والنظام.. برنامج الحزب: "نحو حكم وطني متحرّر".

الحكومة الرشيدة: كل إدارة، حتى إدارة السجن تدّعي أنها أرشد من التي قبلها..

- أستنكر، أعلن ولائي.. الحكومة الرشيدة.. كلمات لا معنى لها!

- هي شعرة بين أن أسمى إعلان الاستنكار جرأة، وتوقاً للحرية، أو أن أعتبره خسة، وانهياراً، وضعفاً!..

- أنا من يقرر ذلك ليس الحزب، ولا المخابرات، وليس الأصدقاء، ولا الخصوم.. فيم كل هذا العناء؟ سأستنكر، وأوالي، وأقرّ لحكومتنا بالرشاد!..

لكنّه عندما قرّر ذلك رأى نفسه مثل حيوان السيرك الذي يخرج من ساحة الخيمة المسيجة، ليدخل في قفص ثقل يرافقه أينما ارتحل!..

دسّ ورقة "الاستنكار" بين أوراقه.. وظلّ يتقلب على شوك التردّد حتى رمت الشمس شعاعها عبر النافذة الشرقية..

- أسلمها لهم؟.. لا أسلمها.

- استسلم!.. لا استسلم..

..

لو استطيع أن انسحب مع انسحاب آخر خيط من خيوط الشمس الذهبية عن مخدتي؟

ظليت مستلقياً أراقب عنكبوتاً مدلى بخيطه الواهي يهبط على الزاوية.

آه يا الجدران!..

لو أنقلب عنكبوتاً لساعة واحدة..

لا.. لا.. ساعة واحدة لا تكفي لاجتياز سور السجن.. إذ علي أن أتسلق الجدار، وأمر من بين الأسلاك الشائكة، سأتأرجح قليلاً أمام حامل مفاتيح السجن، أخرج له لساني شامتا، وأمضي.

ترى كم سرعة العنكبوت؟..

سأتدلى على حافة الجدار بخيطي الواهي. عامداً سأتدلى على نافذة مدير السجن.. أتلصص على غرفة المدير وهي تضطرب بسبب هرب سجين؟..

لا.. لا.. ماذا لو صرت عنكبوتاً إلى الأبد؟ أية حياة هي حياة العناكب.. حياة العناكب ليست مسلية. أفضل أن أصير عصفوراً.

عصفور؟!..

أية حياة هي حياة العصفير؟!..

لا أريد أن أصير عصفوراً. لا أحب أن أكون عنكبوتاً. ولا أريد أن انسحب من النافذة كخيط شعاع..

أريد أن أظل إنساناً وحسب.

فقط أريد أن أظل إنساناً عادياً.

عادياً وحرًا..

الراوي

[أنا الراوي "هاشم غرايبة"، كنت أقلب أوراق كُنَّاش مُصَفَّرَة كتبتها قبل ثلاثة وثلاثين عاماً، فطارت من بينها زهرة ياسمين مثل فراشة بلون التبن لتحط على كفي، وتصل روعي بخيط من شذى الياسمين مع زهو الشباب، وزمن الإلهام، ودفء الحلم، وقدسية الكرامة الشخصية.. فسطع حبر الكوبياء موقظاً الذكريات الغافية في كف الزمن..

.. أتذكر أن "عماد" تعرف على الحزب قبل عام ونصف من اعتقاله، خلال نشاطه من أجل تأسيس اتحاد طلبة الجامعة.. فوجد في الحزب مثقفين يجادلهم في البنيوية، والوجودية، ويختلف معهم حول السبيل إلى الوحدة العربية، وتعريف الاشتراكية.. وتعرف على مناضلين أججوا أحلامه بالحرية والتحرير والعدالة الاجتماعية.. ورافق "أبو موسى"، فوضع إصبعه على معنى أن يكون..

هل هذا ما يُسندُه في مواجهة سؤال السجن؟.. هل هو الشعور بدفء الانتماء لنخبة ألفها؟ أم هي لذة الاختلاف والمغايرة؟..

الأفكار كانت غائمة في ذهنه! لكن وهجها وهو يحاول الفهم هو ما يدفعه للإصرار على قول لا..

ما هو ذلك السرّ الذي كان يجمع زملاءه الطلاب للتظاهر من أجل.. أو دفاعاً عن.. ويجمع المساجين من حوله اليوم بانبهار متبادل!

ما هو ذلك الخفي المنيع العصي الذي يخاف أن يخسره!

ذاك التوهج المشع من احترامه لذاته، وإيمانه العذب بمقترحاته.. أم
ذلك البريق في العينين عندما يحتاج وهو مؤمن بما يقول..

ما الذي يعصمه من مغبة الاستنكار؟ هل هي جرأة امتلاك سلطة ما..
ولو كانت مجرد سلطة حقّه في قول لا..؟

ما هي الجرأة؟..

كتب بقلمه الكوبيا:

ماذا يبقى مني إذا سلبت الحق بقول "لا"؟..

الحرية هي أن يكون لنا الحق بقول "لا"؟..

لا؛ خصبة.. نعم سهلة. خائفة. قاحلة..

لا؛ مفتاح الحرية..

لا شيء يهب الجرأة كنسيم الحرية.

عيد

عندما علت تكاير العيد، فاجأته نسمة ياسمين هبت من داخله. انشرح صدره، نحى أوراقه جانباً، وقام يشرب ماءً من الزير. شعر شعوراً فريداً بلطافة هذا الفجر من أيلول.. تحديداً؛ يوم عيد الفطر، الخميس الأول من شوال 1397هـ الموافق 15 أيلول 1977م.

جلس في الباحة الصغيرة أمام الغرفة البيضاء غير عابئ ببرد الصباح، وراح يراقب انبلاج الفجر بنهم.. انتشى برائحة ترانيم العيد تفور في فضاء المدينة..

الله أكبر الله أكبر والله الحمد..

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله..

يرى وجه أمه يتموج بين زهر الياسمين وهي تكنس باب الدار في ضوء الفجر الأبيض..

يسمع خرير ماء.. هل قام أبي إلى وضوئه؟

يشم رائحة خبز.. هل هي أقراص العيد تحببها أمي؟

خرير ماء بعيد، وعبق قهوة محمصة؟ ورائحة خبز طازج.. وشذى الياسمين..

في البيت؟

في القرية؟..

في المدينة!..

هل كانت هناك مدينة وقرية وبيت؟
 هل ثمة ياسمين، وخبز، وقهوة، وماء؟..
 هل جاء العيد!
 السجن لا يتلذذ الناس؛ بل يتلذذ طعم الأشياء ونكهتها..

في العيد يأتي زوار غير متوقعين..
 فرح عماد بثلة من زملائه في الجامعة يتجرؤون على زيارته!.. لم يتحدثوا في السياسة، ولا عن شؤون الجامعة. ثرثروا عن البنات طبعاً..
 ودسّ واحد منهم ورقة في كمّ الرفيق!
 بجانبه على شبك الزيارة كان البشهندس ينحني بطوله الفارع ليتحدث مع زوجته وابنته التي لفتت انتباه الشباب بشعرها الناري المموج.. قال أحد زملائه: (هاي البنت شايفها عندنا بالجامعة)..
 انتبه عماد أن والدها طلب من أحد الأولاد الذين يخدمون على الشبك أن يحضر ماءً، فجاءه بالماء من عند الطموني، وضعت البنت طاسة الألمنيوم على حافة جدار الشبك القصير الذي يفصل بين الزوار والمساجين، ولم تشرب!.. استأذن الرفيق زواره لدقائق، ودخل.. أحضر دورق ماء زجاجي نظيف، وبضع كؤوس ورقية. سكب الماء للمهندس وزوجته وابنته طبعاً، فانفتحت شهية الزوار للماء.. دار بالدورق والكاسات الورقية وسقى العطاش..
 علّق المهندس مستعرضاً خبرته: هاي المي من نبع راحوب. ما فيه أنقى منها بالأردن.. في كل إربد ما ظل غير حاووز التل موصول بنبع راحوب.. وباقي أهل إربد يشربوا من واحة الأزرق..

غادر زملاءه شبك الزيارة، وراح يجمع الكؤوس الورقية المستعملة في كيس فارغ..

أمسكت الصبية كأسها الفارغة، وقالت:

- حضرتك...؟! -

انصاع المهندس لرغبة ابنته، فدعا الرفيق ليسلم عليها..

- ابنتي مها.. دخلت الجامعة هذا العام، وتسمع عنك من زميلاتنا..

"السنفورة" رغبت بالتعرف على الطالب المشاكس الذي يتحدث عنه الطلاب بخوف وإكبار! والمهندس فخور بابنته التي تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة اليرموك، وفرح عماد بـ"السنفورة" النحاسية ذات العينين العسليتين الذكيتين اللتين لا تشبهان أبداً عيني غزالة المها الواسعتين السادجتين..

جاملها قائلاً: أكيد البشمهندس رح يطلع براءة..

هزّت غرّتها جانباً، وقالت: حقاً..

طوال حضورها لم يسمعها تتكلم جملة كاملة؛ لكن كلماتها المقتضبة رفرفت حوله مثل فراشات ملونة..

يمشي وحيداً في باحة السجن..

ياه ما أحلى الإلهام!

يمر حسن تراتزستور: مسا الخير يا رفيق..

لا يرغب أن يحدث أحدا.

يريد أن يستمتع وحده بهذا المساء العيدي ذي السماء السماوية..
يسترجع طلة ذات الشعر الأحمر، والعينين الباسمتين، والأنف الشامر
المحاط بالنمش.. يستمتع معها بمشهد تبدل أشكال الغيوم السابحة إلى
الشرق متجهة إلى السهل الخمري الذي نبتت فيه طفولته.. يتسم لخاطر
طري: لماذا نتذكر طفولتنا بحضرة من..

يتلثم قليلاً: بحضرة من نحب؟..

ثمة عصافير بدأت ترفزق وهي تأوي إلى أعشاشها في الجدار العالي..
وحده القط يجيد مداهمته في هذه اللحظات الخاصة.. مشى إلى جانبه
دون أن يقول شيئاً. لما ارتفعت صافرات الشرطة كي "يضبوا المساجين" في
مهاجعهم، اقتنص اللحظة، وسأل مبتسماً: عجبتك؟
دهش لمداخلته! وبسط كفه باسمًا: ثعلب!..

ضرب القط كفه بقوة على الكف المبسوطة له، فسقطت الورقة المطوية
من كُمّه.. التقطها عماد على عجل، وأوى إلى مهجعه في الغرفة
البيضاء.

ليلاً حاول التقرب من المهندس، سألته عن مسار قضيته، وهل ستحوّل
للمحكمة؟.. تشاغل الرجل بمحشو غليون، ومتابعة مسلسل "بيتون بليس"
على التلفاز!..

كان حسن ترانزستور شغوفاً بتوقع تطور أحداث المسلسل، أو المباراة،
أو الفلم المعروض على التلفزيون، ونادراً ما تربط معه، فصار محط تندر
السادة..

الليلة زبطت معه، بل غير الاصطفافات والتحالفات في الغرفة البيضاء.. حدث ذلك أثناء متابعة فلم عربي عن شابة متزوجة من ثري عجوز، وتحب السائق..

عادة ما تجري المشاحنات والمناكفات هنا حول مباريات كرة القدم.. أما هذا الفلم فقد أثار حماسة المتفرجين أكثر من مباراة بين الوحدات والفيصلي.

انحاز المهندس وحسن إلى الزوجة التي تحب السائق، وانحاز ملبورو وكناري إلى نظمي حشيش في تشجيعه للزوج الثري الجلف.. وظلّ معاليه على الحياد.

تلطف المهندس، وقال: الرفيق مع الزوجة طبعاً؟

ضحك عماد، وقال: أنا مع السائق.

علّق كناري هازناً: طبعاً. شيوعي.. نصير الشفيرة والشراميط. حاصله،

انقسم الجمهور إلى فريقين؛ ثلاثة ضد ثلاثة..

عماد سعيد بكونه من فريق البشمهندس لأسباب وردية أخرى..

دخول الرفيق في تحالفاتهم أمر طارئ لم يعجب أبو نظمي.. فحاول استقطاب معاليه إلى صفه: معاليك ما ترضى بالخيانة؟

أطفاً معاليه سيجارة الكنت في منتصفها، وسعل سعلة خفيفة، ولم يقل شيئاً..

يئس حشيش من استقطاب معاليه لفريقه، فقال: التنازل ما عندهم غير..

تظاهر معاليه بأنه لم يسمع، وتابع استمتاعه بالتنبلة.. كل ما كان يقوم به لإثبات وجوده هي كحة قصيرة بين الحين والآخر لا مبرر لها.
لما لاحق الزوج امرأته الشابة ببندقيته، راح حشيش يحك ذقنه، ويهتف:
طخها الخاينة..

الطج حائر! مشاعره مع فريق البشمهندس؛ لكنّه لا يحتمل فكرة مخالفة أبو نظمي.. معاليه ظل محتفظاً بتنبلته، وسعلته التي لا مبرر لها.. لكن هذا الحياء لم يعجب أبو نظمي، فأطلق سيل شتائم على الزوجة، والسائق، والتنازل.. وكأنه يشتم كل من لا ينحاز له.. شيء ما في أعماق الطج انتفض، فانفلت زمامه فجأة، ونفض جرابه في وجه الوزير..

- على ايش شامر خشمك وساكْت؟ إذا مِشْ عاجبك حكينا؛ نورنا برايك..

احمرّ وجه الوزير، واعتدل في جلسته !

أحسنّ الطج في تورّطه؛ لكنّه بدل أن يتراجع رفع صوته بحنق!..

- تستنى رئيس الوزرا يقوم ويقول لك تعال اقعد محلي!.. منك وورا.

جحظت عينا معالي الوزير دهشة. وفجأة، تناول منفضة السجائر وضرب بها الطج، فأخطأه، ارتطمت المنفضة بالباب، وتناثرت أنصاف سجائر الكنت..

أحسنّ الطج أنه تجاوز حده، راح يلم أعقاب السجاير، وهو يتمتم: ما خلص، راحت عليك. حط عنها واستريح..

توتر الجو. وصمت الجميع صمتاً له حسيس مكبوت..

انكمش الطج على برشه عند العتبة، وكفكف حشيش شفاهه كأنماً
ضحكته، لكن كناري انفجر مقهقهأ، ها ها ها.. تبعه الجميع مقهقهين
واحتقن وجه الوزير!

انسحب عماد منشرح الصدر إلى كناشه. واستفاد من الجو المتوتر الذي
ساد الغرفة، فأضاء لمبته، وأسند الكناش إلى ركبتيه، وفرد الورقة التي
كانت في كمّه..

[الحزب الشيوعي الأردني - المكتب السياسي.

خاص - تقرير إخباري للكوادر المتقدمة في الحزب.

يلاحظ في السياسة الأمريكية أن الرئيس كارتر يعتمد النهج الشامل،
ويفضل على وجه التحديد إقامة وطن للفلسطينيين في الضفة الغربية
وقطاع غزة يكون على ارتباط بالأردن. كما أنه يوافق على عقد مؤتمر
جنيف مجددا بمشاركة الاتحاد السوفيتي وكل أطراف النزاع.

بيغن من جانبه ينفي أن يكون للفلسطينيين أية حقوق وطنية، ويعتبر
قرار مجلس الأمن 242 لا ينطبق على الضفة الغربية وقطاع غزة.
ويعارض عقد مؤتمر دولي بمشاركة الاتحاد السوفيتي، وجهود اللوبي
الصهيوني في أمريكا ناشطة من أجل عرقلة خطط كارتر لعقد مؤتمر
دولي. وهناك مشكلة في الجانب العربي أيضا. فالأردن وسوريا يفضلان
تمثيل العرب بوفد موحد في حال انعقاد مؤتمر جنيف مجددا، فيما
سادات مصر يفضل أن تكون هناك وفود منفصلة..

وصول حكومة يمينية إلى السلطة في إسرائيل برئاسة مناحيم بيغن في
انتخابات مايو (أيار) الماضي وضعت نهاية لثلاثة عقود من سيطرة
حزب العمل على الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. كما أسفر وصول

حزب الليكود إلى الحكم في إسرائيل عن تغيير رئيسي في السياسة الخارجية لإسرائيل. حزب العمل براغماتي شغله الشاغل أمن إسرائيل، أما الليكود فهو حزب قومي متمسك بمشروع «أرض إسرائيل». وهو يرفض أية مطالب للأردن تتعلق بالسيادة الأردنية في الضفة الغربية، كما يرفض أي حق للفلسطينيين في تقرير المصير.

الحكومة الإسرائيلية الجديدة لن تكتفي فقط باحتواء الضفة الغربية بل ستنفذ عمليات طرد جماعية واسعة للفلسطينيين من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية. يضاف إلى ذلك أن رئيس الوزراء الجديد، مناحيم بيغن، هو زعيم لجماعة إرهابية يمينية في السابق، وعضو في حكومة الوحدة الوطنية برئاسة ليفي أشكول، وصرح آنذاك أن فلسطين تقع شرق نهر الأردن، وأن الشيء الوحيد الذي يحتاج إلى تغيير هو الحكم الملكي لأن غالبية سكان الأردن فلسطينيون!

إذاً، المساومة بشأن الضفة باتت خياراً مستبعداً من جانبي إسرائيل والأردن على حد سواء.

(الخيار الأردني) دُفن، وحل محله (الخيار المصري) ..

أيلول - 1977م.]

تبسم بعد أن قرأ تقرير الحزب: بيش كيلو الخيار.. مع من سأتحادث بمضمون هذا التقرير؟!

أخرج قلادة الخرز التي نسجها له الختیار، وصار يعاينها بعيداً عن أعين الزملاء في الغرفة! ..

- هل أهديها لك يا مها؟ هل تقبلين..

فيما يقلّب القلادة بفرح.. اكتشف أن الاختيار جعل مربع الصدر في
القلادة مثل جزدان صغير.. خرج يندس فيه رسالة غرام..
(مشّ قليل الاختيار!)

دسّ تقرير الحزب في الجيب المنمنم، وعلّق قلادة الخرز على مسمار
بجانب اللمبة..

وغادر العالم الى كناشه والقلم..

كأنها قالت كل شيء!

كأنني لم أقل شيئاً!

لم تكن معنية بتوكيد حضورها المفطور على البهاء..

لكن صوتها انبجس داخلي ينبوع عسل!..

تدلى بيننا عقيق سنسالتها ناعماً مثل تاء التأنيث؛

بلا تكلف جعلتني أتجسس على أناقتي.

لم يكن بيننا موعد للقاء.

لم تلتق عيوننا خلصة ؛

ولا تبادلنا ابتسامة المجاملة البلهاء.

مجرد مرحباً..

ووقفت بقدها الممشوق على رمشي!

بلا تكلف باعدت صورتها بين رمشي ورمشي..

موسيقى كلماتها المبعثرة.. تناغيني!

عطرها يشئت خطوي إلى حيث لا أدري.
ها هي تسرقني من صخب المكان.. وصفير السيارات.. وزحمة المارين .
لا أرى إلا قامتها بارعة الحضور.
ياه.. كم مضى من الوقت أفكر بها؟
ياه.. ما أحلى التفكير بها!
كأنه ليس مساء بل فجر جديد!
ما أرقّ هلال السماء يرتسم كخط حاجبها في الأفق!
كأنني اكتشفت جمال الكون من جديد!
كأنني أرى السماء لأول مرة!
كأنني أسبح مع الغيم!
كأنني..!
كأنني أحبها.
بدا فضاء السجن شاسعاً.. ثلّقت زهرات الياسمين في فضاءه مثل
فراشات مرحة..
غفا قليلاً.. حلم أنه عصفور على شجرة ياسمين.. ثم رأى نفسه يقف
على سور السجن، يفرد ذراعيه إلى آخر مدى. يمتد رقبتة فتطول
ويكسوها الريش. يحرك ذراعيه كجناحين.
يهتف به القط : طر. حلق..
- قدماي ثقيلتان.

- مد ساقيك وارم جسمك.
- لا أستطيع.
- تخيل نفسك تسبح. اسبح يا رفيق.
- ساقع وأتهشم..
- .. رأى الخفير الذي في البرج العالي يصبوب رشاشه نحوه.. اختل توازنه. هوى. رفر.
- هتف القط: طر. حلق يا رفيق!
- حلق. وسمع صوت صليات الرشاش خلفه.
- أفاق مذعوراً، والشرطة يسدّون باب الغرفة البيضاء!

* * *

حملة تفتيش!

الغرفة البيضاء لا تخضع لحملة التفتيش الداخلي التي يشنها الشرطة فجأة على المهاجع الأخرى. هذه المرة الغرفة البيضاء هي المستهدفة. وبالذات "عفش الرفيق" نبشوا الفرشة. فتحوا المخذة، قلبوا أوراقه ورسوماته وكتبه صفحة صفحة، نبشوا ملابسه جيئاً جيئاً، وثنية ثنية.. صادروا الكتب والأوراق والرسومات.. وفي أثناء ذلك كان ذهنه يعمل بسرعة.. يعرف عن ماذا يبحثون، ويعرف أن يهوذا كان من الحواريين المقربين..

- شكراً للخيار على العقد الجميل.. وتباً لك يا القط..

فيما هم يغادرون زاويته يائسين سحب ضابطهم سلك اللبنة بقوة هاتفاً: - هاي ممنوعة كمان..

فلذعته الكهرباء!..

- هاهاهاها..

ضحك الطج، فصغعه الشاويش يونس، وواصل عمله.. مرّوا سريعاً في أطراف الغرفة، فصادروا راديو حسن. وسكين أبو نظمي، ومغلفات "كُنْدُم" لم يعترف أحد بملكيته..

سأل الضابط الشاب مندهشاً: لإيش هاي!

قال الشاويش يونس للضابط وهو يميّط واحدة منها، ويضحك: واقي! للنظافة العامة.. نظر موارد إلى معالي الوزير، وأمال شفته السفلى بنجث، وقال للضابط:

- شو رأيك نقيس على حجم مين فيهم يربط؟
كانت أوداج معاليه تتنفخ، ووجهه يحمر، وتنفسه يصير شخيراً..
وفجأة صرخ المهندس مذعوراً ملخوماً:
معالي التنبل؟ معالي الوزير!.. معاليك..
حملوه إلى عيادة السجن..
لكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا به إلى المستشفى حياً!

أمربد

انتظم إيقاع عقارب الساعة، وانتظم طلاب مدارس ظهر التل في دوامهم.. وتناوب عليه كابوس السرداب. وكابوس المشي على حافة السور.. يشتاق للكابوس المتكرر أيام الدراسة.. كان يرى في المنام أنه تأخر عن الامتحان. أو أن مدة الامتحان تنقضي دون أن ينهي ما يكتب.. يشتاق لمقاعد الدراسة في الجامعة. يشتاق صباحات إربد وعبق محامص البن، ورائحة مقالي الفلافل، وخلائط دكاكين العطارين..

تبدل الإحساس بالزمن بعد مها!..

فجأة صار الليل طويلاً، وخفت ضجيج السيارات خلف السجن، واتسع الوقت لأحلام اليقظة:

(.. الشارع ذاته ولكن ليس كما كان في رمضان، صار الشارع واسعاً، ولم تعد إضاءته وامضة بالأهلة والقناديل.. وكف الأولاد عن لعب الدواحل في الحارات.

المشي تحت قمر أيلول منعش، بي رغبة أن أظل هائماً بالطرقات حتى مطلع الشمس.

السوق ذات السوق، ولكنه بعد منتصف الليل يبدو مسرحاً لكائنات لا ترى في زحمة النهار، والعلامات الفارقة بالمدينة تصير مختلفة: بقالة كانت ضائعة في زحمة السوق أجدها متألقة بأضوائها يؤمها السهاري من سائقي التاكسي، والشرطة المناوبين، والأرقين المقطوعين من الدخان بيجاماتهم المجددة..

في شارع جانبي تقف حافلة البلدية تجمع النفايات من أمام مخبز يجهز عماله العجين لخبز الغد، وفي عمقه تصدح أم كلثوم: "بقى يقول لي وأنا أقله، وخلصنا الكلام كله.."

في الليل تكثر القطط، وعند أحد المنعطفات رجل يرتدي كومة ملابس رثة ينبش في حاوية قمامة، ويعربش لقاياه على عربة مصنعة بما توفر لديه من عجلات وخردة، وفي زقاق هندومة صبي يقود دراجة هوائية بائسة يجمع العلب الفارغة.. أصوات السهارى في الليل تختلف عن أصوات الحتفين ببضائعهم في النهار.

بعد منتصف الليل تختفي الأغاني الدارجة، يغيب صخب المجوز والطبل.. وتسمع عن بعد أغان قديمة لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو أبو بكر سالم..

عندما يقترب الفجر تبدأ الشاحنات الكبيرة المسافرة إلى أماكن بعيدة في عبور الشوارع الرئيسية الممنوعة عليها في النهار، ثم تمر القلابات والتنكات والجرافات العاملة في الطرق والمباني، يليها في الظهور الحافلات العاملة على الخطوط الخارجية..

يلمّ الساهرون في شارع الجامعة وشارع الثلاثين نثار سهراتهم، ويشطف أصحاب المطاعم والمقاهي عتباتهم، فيما يستيقظ وسط المدينة على رائحة الفلافل.. ينام شارع الثلاثين ويستيقظ شارع الملك طلال..

على تقاطع الطرقات وحول خبز التنور الساخن يتلاقى السهارى والسكارى وأبناء الليل مع العمال والفلاحين والجنود المبكرين إلى عملهم والمعلمون في المناطق النائية..

تحضر عربة أبو سالم تفوح حولها رائحة الكاز وهو يعد البريموس لغلي القهوة والشاي.. تظهر بسطة فاروق بائع الكعك والبيض وملحقاتهما.. تفوح رائحة الخبز المشروح من مخبز التنور الذي يزود رواد مطعم ياسين وقاسمية بالخبز الطازج رغيفاً إثر رغيف.. تصطف الطاولات والكراسي في وسط الشارع، وتنزل صحنون الحمص وال فول والمسبحة، وتتدحرج رؤوس البصل.. ومن لا يجد مقعداً يضع صحنه فوق برميل الماء أو فوق شوال الفول ويأكل.. وعلى ناصية الشارع الغربية تتدحرج السندويشات تباعاً من شباك احمد الفلافل، ويأز صوت مكنة الطيراوي يعصر الفواكه قرب الزاوية الشرقية.

مع أذان الفجر أرى المؤمنين يخرجون بدشاديشهم البيض وحفاياتهم المبللة ذاهبين إلى المساجد.. يليهم ظهور عمال المياومة يحملون قفافهم وفؤوسهم على أكتافهم ويسرون بهمة إلى ورشهم، ويثرثرون بصوت مرتفع..

يسود المدينة سكون جميل ما بعد صلاة الفجر يتيح التأمل بأفول القمر، ومراقبة غيمات أيلول الرقيقة وهي تعبر الأفق بتشكيلات لا تستقر على حال، ويهب هواء بارد نظيف..

مع أول خيوط الشمس تضج العصافير بنشيدها. يبدأ طائر بالزقزقة ولا تلبث أن تتبعه الجوقة: الحسون.. البلبل.. القبرات.. عصافير الدوري.. وأخيراً هديل الحمام.. تطير الطيور إلى أرزاقها، ثم يرتفع ضجيج الحفلات وزوامير باصات المدارس.. ويبدأ يوم جديد بكل احتمالاته.

ما أجمل الصباح!

يشتااق جرس المدارس، وعاش المليك ساميا مقامه.

يشتاق "جولق" يصبح على الجرائد في شارع السينما: بيروت ولعت بصراحة.. الملك يقوم بزيارة خاطفة إلى عمان.. إعدام البندورة في مزارع الأغوار.

يشتاق الحسبة الممتدة من الجامع المملوكي غرباً إلى المسجد الكبير شرقاً فيما الخضرجية يصيحون: جاي ع التين جاي. من غسل راحوب هالتين جاي.. أشقر وملظظ هالشمام. من حوار ه الأنااس.. بتيري هالبيتجان.. مثل الكوسا يا كوسا. من فوعرا هالكوسا.. حمرا وغندورة يا بندورة. مال رحابا هالبندورة..

يشتاق شبيحة سوق البالة ونداءاتهم عند الضحى: هتنورة للغندورة. فرح ولدك بعشر قروش. هاي الشلحة لفلحة..

يشتاق الناس في غدوهم ورواحهم عبر شوارعها المتقاطعة مثل تقاطعات صينية البقلاوة.. يشتاق لباص الجامعة والقلوب المرشوقة بالسهم على ظهور المقاعد..

يشتاق رابطة الكتاب في مقرها المتواضع خلف البريد. يشتاق شعراءها ومناكفاتهم، وكتابها وغنائمهم، ورساميها بلحاهم الشعثاء وشعرهم المنكوش.. يشتاق لدوار القيروان، ودوار البريد، ودوار الجامعة، والزوايا التي يبيعون عليها اليانصيب، وزوايب الكندرجية، ومظلات كتاب الاستدعاءات، وبسطات الأرضفة التي يتعثربها المشاة..

يشتاق مساءات إربد بغيومها الشفيفة، ولسعة برد الصباح، وغبرة الظهيرة وهي ترتفع زوابع مع ضجيج المدينة إلى ظهر التل..

يشتاق قهوة الكمال، وكنافة العفوري، وحمص الدرزي، وفول ياسين.. وتصفح الكتب والمجلات عند كشك الزرعيني..

يشتاق مجمع الشيخ خليل: آخر راكب لعمّان.. آخر جندي للزرقا.. تهايا
يا باص تهايا..

يشتاق إربد مع المساء؛ عندما يؤوب وافدو القرى إلى قراهم، يتلاشى
صخب المدينة، ويتحلّق الرجال أمام دكاكينهم المشتقة من بيوتهم
يدخنون، ويختسون الشاي بالنعناع..

يشتاق حجارة البيوت السود والبيض وزهور المجنونة الزاهية تتعربشها.
يشتاق الريحان والنعنع ونبات السجادة بألوانه المخملية على شرفاتها.
يشتاق زهور الساعة والمدادة تكسو سياجاتها، وشجيرات الياسمين،
ومكنسة الجثة.. ومعرشات الدوالي في مداخل بيوتها، والقحوان الطالع
في مفصل حجارتها..

يشتاق باعة الكعك والهريسة والترمس وشعر البنات يجوبون الحارات
والزواريب..

مثل الباعة المتجولين يهيم في الطرقات باحثا عن بيتها كما وصفه
البشمهندس متبجحاً..

هاهو يتنسم معها عبير الياسمين المسائي، فيما تستسلم إربد لكونها بلدة
وادعة!

- أشتاق مها..

- هل أحبها!

(.. عندما يتوهج رأسي بما يفرحني، أتمنى قلماً من ذهب، وورقاً من
حرير لأخط عليه كلماتي.. لم يكتبوا معلقاتهم بماء الذهب للمباهاة،
كان ذلك تنويجاً لفرحة المبدع بما أبدع.. ولم يكن تعليقها على جدار
الكعبة إلا تزييداً للفرح، ونفضلاً على الناس!؟

لكن وميض الفرع قصير المدى.. ما تعطيكه الدنيا بيد تعطيك مثله غماً
ونكدا في اليد الأخرى.. حتى في السجن يحدث ذلك!)

* * *

جزيرة العمرة

لكلّ شيء باب، وللشهوات عتبات وأبواب ومفاتيح وحراس، وللحمّام باب ومفتاح وحارس. مفتاح باب الحمّام بعهدة أبو علي كناري.. يشرف على تنظيم الدور، ونظافة الحمّام، وتزيت البريموس..

الحمّام غرفة مستطيلة سقفها عقد بقبة واحدة، ولها شباك واحد بجانب الباب الشرقي، وكوة واحدة في زاوية الجدار الغربي تحتها موقد نار وفوقه برميل ماء.. قام البريموس مقام الخطب الذي كان يوقد في الموقد في سالف الأيام. جداره الجنوبي مقسومٌ إلى خمس خانات، يرتفع الحاجز ما بين الخانة والأخرى متراً واحداً فقط، كي يبقى المستحمّون تحت الرقابة، اتقاء للموبقات، لكن الموبقات مختلة تندل مظائنها، وتصطفي أوقاتها.. هنا يتعرف المساجين على عري بعضهم بعضاً، فتتكشف العاهات الخفية، والندوب المكسوة، والوشم المخجل.. ومفاتيح الجسد المستورة أيضاً..

وما يهم عري الجسد في مكان فيه الناس مكشوفو السريرة، أرواحهم مشرعة الأبواب، مخلّعة النوافذ.. هنا لا تعود العادة السرية سرية. هنا يتبارى الشباب من يقذف منه أبعد. وهنا يختار اللوطيون شركاءهم ولو بالخيال إن عزّ المنال..

دخل هذا الحمّام أول مرة بصحبة عسّاف، وتباهى عسّاف بأن عضوه أكبر.. كان ذلك يوم وصوله إلى السجن..

بعد انتقاله إلى الدار البيضاء استفاد من ميزة السكن مع "النخبة"، وصار يدخله وحيداً بلا رقابة متمتعاً بمزايا الخلوة مع جسده! فقد خصص أبو علي كناري يوم الأربعاء بطوله للنخبة..

اليوم ضاق الوقت بسبب ازدحام الغرفة البيضاء بنزلاء طائرين راغبين بالاستحمام.. فدخل عماد الحمام بصحبة حسن، احتلّ عماد ركناً قصياً بعيداً عن حسن.. غرف الماء الساخن وسكبه على جسده. لآب الصابون على رأسه وغسله. فرك رقبته وصدره. ليّف ظهره بمهارة، ووصل إلى وسط جسمه، أجرى الصّابون بكثافة هناك. تلقائياً انتصب. أغمض عينيه يستحضر صورتها.. صورة مها، لكن حضورها كان غائماً.. قطع عليه خيالاته نداء حسن. حسن لا يرى جيداً بدون نظارته مما اضطره للاستعانة بعماد ليتناول الصّابون التي مزطت من يده وهو يستحم. تناول الصّابون عن الأرض. ووقع بصره على عضو حسن بقلنسوته المدلاة مثل الزائدة الدودية. رفعها بطرف الصّابون.. ضحك، وقال: عندك دلالة زيادة..!

أمسك حسن الصّابون، وقال: تضحك على حماتي؟

ضحك حسن.. ومد يده إلى عضو عماد: وحماتك مثل ايش؟.. واوا، معنتر!

تلامس جسدهما في إغراء الدفء ونعومة الصّابون، وسرقتهما اللذة للحظات كانت كافية ليداهمهما أبو علي كناري..!

كان كلاهما عاريين في خانة واحدة من الحمام، ويضحكان..

يا للخرج. يا للعار!!

لم ينتبها لرشوته بما يكفي لسكوته إلا بعد أن صارا في قبضة عطا الله بك، الذي وجد فرصته ليذل الرفيق!

أمر بتعرية جذعيهما، ودهنهما بالدبس، وصلبهما على الشبك الداخلي ليتفرّج عليهما المساجين..

ما أفسى الشمس!..
ما أبطأ الدودة الترابية وهي تدغدغ مسامة الجلد، وتجتازها حلقة حلقة!
ياه ما أثقل الذبابة..
الفراشات أيضا هرعت لوليمة الجلد المشاع..
فليذهب المهسّس إلى الجحيم!
اللعنة على الزقراط..
أي مسافة قطعت النحلة اللعينة لتنال نصيبها من الأعصاب المشدودة..
الدبابير. النمل الناعم مثل السمسم. اليراعات اللامعة. اليعاسيب
بأجنحتها الشراعية. الفراشات البائسة بلون التبن.. على ماذا كانت
تتغذى هذه الكائنات قبل هذه الوليمة!
ما أثقل حبة العرق وهي تتكون وتتدور وتتدحرج وتنقط كاوية نهايات
الأعصاب!
يبدو أنه ليس من حقّ أحد أن يفكر بأن الأسوأ قد انقضى.. يقشعرّ بدنه
من سماجة الحشرات التي تنوش جلده بشراسة، وتقشعر روحه من
برودة العار.. يختنق بألم رسغيه وكاحليه المسلّخة بجبل التعليق.. ويغصّ
بمرارة الهزيمة.. حتى لما ربطوا إبهام رجله بتمرة عضوه، وفكّر بالانهيار لم
يشعر بالهزيمة!
حسن يصرخ ويبكي ويسترحم، فيما عماد يكرّز على أسنانه، يحملق
بالسماء، ويشعر بالقهر: ليس أمامه من يتحداه وينتصر.. ليس هنا فكرة
يدافع عنها، أو تنظيم يتستر عليه.. مجرد سجين ينال عقاباً بسبب حماقة..

يشعر بالقهر والخذلان، وتتصاعد في روحه الرغبة في الانتقام لتواسيه قليلاً..

حوله عيون جاحظة بالرعب أو الشماتة، وخلفه شرطة يدخنون ويثرثرون لمواراة مشاعرهم..

عقوبة مثل هذه كافية لتمويل منامات المساجين بالكوابيس لشهرين قادمين!

عقوبة بهذا الوزن، ترهب المساجين والشرطة على حدٍ سواء، وتعزّز مكانة عطا الله بيك عند رؤسائه، وتكرّس جبروته على مرؤوسيه..

فكّوهما بعد ساعة. كانت ساعة أطول من يوم ميشع!

هل انقضى الأسوأ؟

يا للخيبة!

[.. لَوْ أَنَّ الْفَتَى حَجَرَ، تُنْبِئُ الْحَوَادِثُ عَنْهُ وَهُوَ مَلْمُومٌ]*

لم تكف ألسنة المساجين عن تقليب مواجعه، صار مضغة في أفواههم! وصار لكلّ سجين روايته الخاصة..

احزروا مين السمن، ومين العسل؟

- شيوعي ينطع أمه.

- قال أفندية قال..

صار السجن كلّ عشّ دبابير!

* القول لتميم ابن أبي، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم.

(اللعنة على الزقراط!)..

يشعر أن ما بداخله يشبه زلزالاً من الدموع، غاب شذى الياسمين من ذاكرته. وصار عواء الذئب عويلاً في داخله. صارت الغرفة البيضاء قائمة موحشة..

لم يكف عن تعذيب روحه، وكفّ عن التفكير بمها، وصار ينجل من الخروج إلى شبك الزيارة. أطلق لحيته على سجيتها فنمت مبعثرة، وبدا شاربه خفيفاً فصار شكله مثل تلاميذ المبلوية..

جافى الحمام، وغاب الاستحلام عن مناماته، ولم يعد قادراً على ممارسة العادة السرية..

ذات الجسد الذي كانت تُشفي جروح رشة ملح صار يتحسس من كل شيء. ولم تلتئم جروح رسغيه وكاحليه السطحية بيسر!

كره كناري بكل حواسه، وتجنّب، وصار يقضي ليله باكياً بصمت..

آه يا وجع العزلة.. ألم دائم الوحدة بعيد مطلع الفجر!

ما جدوى الصمود، والتحدّي، إذا كان يمكن أن ينكسر الإنسان في معركة تافهة وغير متوقعة؟! يا للهشاشة!

[هل أكل الخروف زهرة الأمير الصغير؟]

قد يدمّر الإنسان ولكن لا يهزم!.. ماذا لو أن شيخك يا همغواي افترى عليه وصار أضحوكة للصيادين.. وهو الذي قهر غطرس البحر!

القط والختيار نجحا في انتشال عماد من عزلته.. الختيار ظلّ مخلصاً في دفع الألسن عن الرفيق، يُسكت المتنطعين بنش مخازيهم..

واظب القط على العناية بالرفيق حتى تماثلت جروحہ للشفاء..

اصطحبه الختیار ليشربا الشاي في زاوية الطموني..

- صديقك القط جدع. يشرشح كل واحد يتعرض لك..

يتوقف القط عندهما ضاحكاً..

- قطع لسانه اللي يجيب سيرتك يا رفيق.. سيرتك تشرف
شاربه! (يقصد كناري..)

يدفعه الختیار بيده: امش روح تحمم بلا لقلقة..

يزيح القط وجهه باتجاه الدار البيضاء متوعداً: رح تشوف كناري يركع
عند رجلك، بس طول بالك.

ينهره الختیار: استغفر الله العظيم!.. قب من هون يا قط.

مجرد ذكر اسم كناري يوقظ الرغبة بالانتقام في نفس عماد.. يدرك
الختیار ذلك مجدسه. الختیار يريد أن يجنبه المشاكل..

يقول لعماد: أنا هون لأنه ركبني شيطان النقرة يا رفيق!

ساعده التضامن على التصالح مع نفسه، وتصالح مع حسن، وتوحدا
للصمود في وجه الشائعات، وصارا صديقين!.. لكن تصالحه مع جسده
تأخر طويلاً!

تغيرت نظرتہ لمن حوله أيضاً: منهم من ارتفع بنظره مثل عساف الذي
اعتبرها قضية عشائرية، وتصدى للدفاع عن ابن عمه، والسيد ملبورو
الذي تجاهل الحادثة كلها، والطج الذي لم يتغير سلوكه تجاه الرفيق، وإن
لم يستطع حفظ لسانه عن البربرة.. ومنهم من هبط مثل أبو حديد الذي

وجد في الحادثة تأكيداً لقناعته بأن البشر سفلة بالفطرة.. شاويش الغرفة
نظمي حشيش، نكد عيشهما ببقبة شيشته، وبتعليقاته السمجة.. أبو
علي كناري صار يتجنبهما، ويتظاهر باللامبالاة.

المهندس كان منشغلاً بتشعبات قضيته الخاصة.. لكنه أصغى لعماد
باهتمام.

- أنا بني آدم يا باشمهندس مثلي مثل حسن.. حسن انتهت مشكلته
لما تخلص من الأذى الجسدي.. لماذا أتعذب كل هذا العذاب،
وكأني وصي على مكارم الأخلاق.. ك.. ك.. كأني مسؤول عن
الكمال البشري..

- يجترّ الباشمهندس دخان غليونه بصمت.. وتعشو مآقيه دمة
حائرة!

- أين هو درب السعادة؟!

تجاربه علّمت الصمود والمنافسة، وحذق التحدي، فانتصر على نظمي
حشيش بالتطنيش، وألزم كناري بخصومة معلنة عنوانها "الاستظراط".

يوماً بعد يوم هدأت الدبابير، والتأمت جروح. لكن طنين مخدّته لم
يهدأ!

قام إلى لمبته وكناشه، رسم فيلا في بطن أفعى، وخروفاً يرعى أشجار
الباو باو..

استعرض وجوه نزلائها! يا للوحشة! إنها بلا عمق في داخله، يراها
مجرد وجوه وأحجام! حاول رسم الغرفة البيضاء.. اكتشف أنها لا توحى

له إلا بمربع قائم.. رمى القلم، وأسند مرفقيه إلى كناشه، وراح ينظر إلى
ساحة السجن تحت ضوء القمر..
في الليل يبدو السجن واسعاً!

في الصّباح مرّت حزمة الشعاع مروراً سريعاً على النافذة.. ناوله
حشيش جزءاً من الجريدة على مضض.. وأحضر له الطج فنجان قهوة
من عند الطموني كالعادة..
قلّب أوراق صحيفة الصّباح بلا تركيز..
وانتبه!

صوت شجار في صحن السجن..

خلال دقائق معدودة سالت دماء، وهُشمت عظام.. وكان كناري واقفاً
أمام الحمام، يتفرج على الطوشة مستمتعاً، وكرشه تهتز من الضحك!
اهتز ذلك العرق تحت الترقوة، موقظاً الذئب في داخله. قفز خفيفاً مثل
وشق. عبر ساحة المعركة. تعثر بعساف المبطوح أرضاً. وقع فوقه. نهض
على ركبتيه وإذا وجهه بمواجهة كرش كناري.. لمعت شفرة حلقة لا
يدري من وضعها بيده. انتفض مثل ذئب. وجرب شفرتة في رقبة
كناري بضربات حائقة جازمة متتابة سريعة.. انهار كناري مثل بعر
يشخر..

تراجع المتشاجرون مرددين كلمات تبتعد عن الذوق: .. أمك يا أخو
الشر.. عرضك وأشل بختك يا عكروت.. ربك.. دينك.. سماواتك..
يحق لنا أن نصفها بأنها الكلمات الدارجة والمألوفة، ويعرفها حتى
الأطفال، لكن لا أحد يعترف بأنها متداولة وحيّة خاصة عندما يكتب..

انتصر فريق وخسر فريق.. وتشطبت وجوه ورقاب. وتمزقت ملابس..
كان عسّاف ملقى على الأرض ووجهه مغطى بالدم، وأبو حديد يمسك
ركبته بيد، ويصق أسنانه المهشمة في راحة يده الأخرى.. أما عماد فقد
كان الدم ينقط من كفيه الذاهلتين، وقميصه مدلى كاشفاً كتفه اليسرى،
وكناري يشخر مذبوحاً.. وكان جرس السجن يعلن النفير!

خلال دقائق قليلة أغلقت المهاجع على من فيها، وثقل جرحى لعيادة
السجن، وأدخل عدد كبير من السجناء إلى القبو.. وظهر "الأحداث"
بدلائهم البلاستيكية البيضاء ومكانسهم الطويلة يشطفون الأرض.

عادة ما تعبّر الخلافات الدموية عن نفسها هنا ب"الشفرة"، إنه الأسلوب
الأكثر شيوعاً بين الزقراط..

إنها شفرة الخلاقة الصّغيرة الحادة. سريعة التأثير. سهلة الإخفاء،
المحترفون يخفونها ملتصقة بسقف الحلق.. وحروب الشفرات مشروعة
في السجنون، مثل شرعية الوشم الذي ينبري له واشمون مختصون
يخلطون السناج بالصمغ، ويدقونه بحزمة إبر حتى يستقر تحت البشرة. في
عملية "طقسية" معقدة تمنح الألم والراحة معاً.. كل ما يلزم في ختام
الحالتين حفنة ملح مباركة تُرشّ على الجروح السطحية لتجفيفها،
ويتباهى السجن المحترف بهذه الشطوب والندوب مثلما يتباهى
بالوشم!!.. فهي رمز السيطرة على الذات. وتنقذ الروح من الشعور
بالقهر! لعلها رمز امتلاك مساحة من الحرية. رمز القوة!.. لقد نجحت
تضحيات أجيال من المساجين من انتزاع هذا الهامش، وتكريس طقوسه
في عقد غير مكتوب.

جلس البشّمهندس الى جانبه على عتبة الدار البيضاء..

أطرق عماد: .. هذه أول مرة أستعمل بها الشفرة. متعة غريبة انتابتي وأنا أضرب لغد كناري والدم ينفر ويطرطشني!! هل سأصير "ضرب شفرات"? .. وأوشم ذراعي برأس ذئب أو زهرة ياسمين مثلاً!

أبو زهرة الذي ناولني الشفرة يشهد لي أنني استعملتها بمهارة محترف! لعلها مهارة المنتقم، وليست مهارة المحترف يا بو زهرة..!

البشمةهندس: يوجد هنا سكاكين للشجار، مصنوعة محلياً من غطاء علبة سردين، أو من ذيل ملعقة يجري طيها وستها على حجر العتبة لأيام طويلة حتى تصير أداة صالحة للطعن.. لو ناولنك أحدهم سكيناً لقتلت الرجل! ألهذا الحد كنت أحقد على كناري..

- الآن أشعر بالشفقة عليه. رجل كبير مكسور الخاطر.

- ها هو منزو في زاويته. عازف عن تلفازه. يخفي ما ألم برقبته بشماغ أحمر كبير..

العراك مثل اللعب؛ حاجة إنسانية لا تخص مرحلة عمرية أو شريحة من الناس.. أما الدم فإنه خطير مثل السجائر والخمر والحشيشة!.. كثيرون هنا يدخلون حب الهال، ويأكلون النمل، أو يشمون الآغو، أو ينهلون بخار المجاري ليدوخوا، والسكرجية يشربون "التوسفين" بحجة علاج الكحة، والسيرتو يسرقونها من عيادة السجن، أو يهربون صينية هريسة مشربة بالخمر بدل القطر فتصير رائحتها مثل رائحة الجرابات العفنة..

السرُّ يكمن في الإدمان. غالبية المساجين مدمنون! يدمنون على ارتكاب "حماقاتهم" بشتى السبل.. النشال مدمن نسل الجيوب ونبشها! واللص مدمن على السرقة! والمغتصب مدمن اغتصاب! واللوطي مدمن لواط!

حتى الأسلوب إدمان؛ أسلوب كلّ فرد في ارتكاب حماقته الخاصة يتكرر
مثل بصمته الخاصة!..

- هل الإدمان ممتع؟!

صمتا

- الانتقام ممتع.

لأسباب تكتيكية اعتبر عساف ضحية كناري مما سهل الصلح. وأغلق الملف!

في هذا الجو المتوتر الذي أعقب المعركة ليس له متعة كالقراءة.. عادة يقرأ ما تسمح به إدارة السجن، عفواً إدارة مركز الإصلاح. يقرأ الكتب كأنما هو عمل عليه القيام به، أو قدر عليه الانصياع له. يقرأ بسرعة، لأن الإدارة تسحب الكتب التي سبق وسمحت بها كلما قامت بحملة تفتيش داخلي. بهذه الطريقة قرأ صحيح البخاري، وتاريخ الجبرتي، ورسائل ابن تيمية، والألم للشافعي.. ومنعوا عنه كتاب تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم.. والاعتراض كان طريفاً: (الله خلق إبراهيم مشُ صنعته)! وكادوا يمنعون عنه رواية المقامر "لولا أن رئيس قلم المباحث الجديد استعرض ثقافته مشكوراً، وكتب عليها: مجرد رواية لا تضر ولا تنفع لكاتب روسي غير شيوعي..

حاصله،

- أنا مع عساف. عساف مع أبو حديد. أبو حديد ضد أبو القناني. صديقي القط مع أبو القناني. أبو زهرة ناولني الشفرة.. اكلها كناري!! فهمني يا اختيار. أفهم منين جاب كرزم قضيب الحديد اللي كسّرهم فيه؟ ضحك الختیار: هذا القضيب خباه أبو القناني لما طلع من السجن قبل سنتين!.. ولما جت عازته عرف لمن يعطيه..

- طيب، القط شو ذنبه يرفعوه فلقة سوبر؟..

قال الختیار: قضيب الحديد كان مخبى عنده.

- بالمجاري؟

- صح. شاطر..
- يعني اعترف عليه صاحبك أبو القناني..
- ضحك الختیار، وقال: لسه ريشك زغب. بدك فت خبز يا ابني.
- ما فهمت!
- استدعته الإدارة، وقالت له بدك ترد لزلمتنا اعتباره، وإلا..
- ونخ؟!.. سبعة.
- ضحك: هو كاين حمار مثلك..
- تفاجأ!
- أنت يا الختیار تقول عني حمار!..
- غضب..
- استدرك الختیار: قصدي ذيب.. والله ذيب.. ذيب جسور..
- لم يرغب بسماع المزيد، ترك الختیار، وقام يمشي في الساحة على غير هدى.
- لم تقبله مخدته هذه الليلة! بقي ساهراً يسأل نفسه: هل أنا حمار؟..
- هذا تجرؤ لم يعتده من الختیار.. خسر القط، وها هو على وشك أن يخسر الختیار..
- هل أنا حمار؟
- (لا. ليس الختیار من يقول ذلك بل السجن.. السجن يمتحننا دائماً بلا موارد.. ويعرّينا بلا رتوش.)

مع الفجر فاحت رائحة الياسمين في قلبه.. راح يستعيد صورة مها فلم يفلح! فقط تذكر نقاط النمش حول أنفها.. يستبد به الشوق للذهاب إليها، إلى جامعته، إلى بيته، إلى أمه وأبيه.. يفكر بـ"الاستنكار".. تنتصب أمامه الورقة التي نسيها منذ زمن بدا له بعيداً جداً، فيراها جداراً مصمتاً يسدّ عليه باب السجن! يشيح عن الجدار، يتناول قلمه ويحاول أن يكتب شيئاً.. لكن مخيلته تستحضر "قفص السيرك": غمر. قط. ذئب. أفعى. جمل. سحلية.. القط.. كلنا محشورون في مكعب القفص حيث: لا مفر للضبع، ولا سيلع تختبئ فيه الأفعى، أو مكان تتربص منه السحلية بمشرتها..

يسأل نفسه: أنا من أنا في هذا القفص!؟..

ما أكثر الذين يتوهمون أنهم يفهمونه، بل ويدركون أسرارهم! تلك الأسرار التي هو نفسه لا يدركها.. وغالباً ما يختصرونه بكلمة "شيوعي"، ثم يضعونه على رفّ من رفوف أفكارهم واعتقاداتهم مثلما يفعل الصيّدلي بقناني الأدوية..

من يا ترى يقدر أن يحوّل السديم إلى تماثيل وأنصاب!!..

(الختيار قالها: حمار!.. أنا حمار.. وإن قبلت المجاملة؛ ذئب!)

رسم نفسه ذئباً برأس حمار له أذنان طويلتان منفرجتان تحيطان بمشهد السيرك..

ضحك..

قلب ذئب جريء، ورأس حمار حرون!؟..

دُجحت خراف كثيرة، وأولم أهل عماد، ونجح الصلح العشائري خارج السجن، وعادت المياه إلى مجاريها داخل السجن.. وعاد صديقه من مستشفى الحكومة: كانت ذراع عسّاف معلقة برقبته، وأبو حديد يحجل متكئاً على عكازة.

طبعاً ذهبت هيتهما، ولم يعودا صالحين للقيادة.. لكنّه تعهدهما بالبيض والدن، وكتب لهما أوتوغرافات مسلّية على الجبس.. "تعيش وتوكل غيرها.. الكرز أصدق أبناء من العصافير.. منيح الـ صار هيك، ما صا(غ) غير شي.."

قال عسّاف: قبضاي يا ابن العم.. لما نطلع من هون حمامتي الك.

حامتك هي هي هي!

سيارتي!.. الفكسة* البيضاء..

ضحك عماد ساخراً: "سياغتك!" قب من هون.

قب عساف، واستدار الرفيق إلى أبو حديد" مواسياً: علقه تفوت ولا حد يموت يا بو حديد.

انهار أبو حديد باكياً: أنا معتر من الله خلقتني يا رفيق. يا ريتني مت لما احترقت أمي.. وراح ينشج ويروي لعماد مأساته:

.. تقول أمي انولدت بيوم قيظ حارّ، ولما انولدت مات أبوي. لا تستغرب. لما بشرت الداية أبوي: مبروك أجاك ولد. طار من الفرح لخزانة الملابس. هناك في بارودة ورثها عن جدّي، وما استعملها من لما استلمها! انفجرت وقتلته.. وبعد مرور سنة ونص على وفاة والدي

* فكسة: تسمية دارجة لسيارة فولكس واجون - النموذج المحدث صغير الحجم.

انفجر بريموس الكاز بأمي وهي تسخن مي لتحممني، احترقت المسكينة واحترقت الدار لكن الجيران أنقذوني. وعشت عند جدتي لأمي لكنها ماتت.. بعد هيك أخذني عمي، وكنت في الصف الرابع، وبعدها ما رجعت للمدرسة، مش لأني كسول أو غي بس لأني يتيم. أخذني عمي لعجلون لأسرح له في قطيع ماعز، لما كبرت طلبت منه يزوجني بنته. زعل! وطرمني!.. جيت إريد أعمل عتال في السوق.. حتى أجا يومي الاسود.. ما كنت أروح لبيوت الناس. كنت أحمل وأنزل حمولة شاحنة كاملة لوحدي.. ولكن القدر ساقني هناك اليوم الاغبر لأحمل أثاث بيت. حملته من المعرض للشاحنة. لكنهم طلبوا مني أركب مع الشاحنة لتنزيل الأثاث في بيت، وكانت هناك حرمة. مش عارف ليش كانت وحدها.. استفزتي بكثرة طلباتها: لا مش هون.. لا هناك.. زيحها ع اليمين.. حطها بالزاوية.. وهي تمسح الطرييزات الجديدة فسحلت*.. الشهوة عميا.. هجمت عليها. شلخت وجهي.. لكن اغتصبتها.. حكموني 15 سنة. كانت أول مرة وآخر مرة..

(سالت دموعه غزيرة على وجهه..)

المساجين يلموا بالنسوان أشكال ألوان، وبوضيعات لا تخطر على بال. الحمل يلموا بالولدان على هواهم.. أنا يا رفيق من لما دخلت السجن ما حلمت إلا أني بضرب الحرمة وأغتصبها.. بجاتي ما شفت ست عارية، ولا حلمت فيها إلا بثياب مشققة!.. حتى لما راجت حكاية كرمة والقط ما قدرت أتخيل السولافة إلا اغتصاب.. حلمت إنها معلقه بشعرها على بكرة بالسقف، وتنزل وتطلع بجبل طرفه بيدي.. حتى بالمنام بغتصب النسوان!

* انكشفت عورتها.

وغصّ في بكاء مريّر..

في اليوم التالي انتقل أبو حديد إلى سجن عجلون بناء على طلبه.

حلّ أبو القناني مكان أبو حديد، وعاد كرزم شاويشاً للشمال! بعد المصالحة والمصارحة؛ جاء أبو القناني بصحبة القط لـ"يزور القبضاي عماد" في الدار البيضاء.

أبو القناني كذاب من طراز فريد. ليس عبثاً اختار رسم الهدهد وشماً لرمانة كتفه. يستحيي بالكذبة التي تحمل التصديق.. جامل الرفيق وادعى أنه يحب الرسامين والكتاب.. أطلعه الرفيق على رسوماته، فتمعنّها وهزّ رأسه بملل، وقال: هات اقرا لنا شي من قصصك يا رفيق.. أخذ عماد برعونة الشعراء والقاصين اليافعين، فاستل ورقة من كناشه، وقرأ:

القشة هي القشة. منها بيني العصفور عُشّه، ومنها ما يعكّر صفو الشراب.

القشة هي القشة، قد تذروها الرياح بسهولة، وقد يبدأ بها حريق الغابة الكبيرة!..

القشة قد تقصم ظهر البعير!

أفعى تهاجم عصفوراً. العصفور يمسك قشة طويلة بمنقاره. يعصى العصفور على البلع. القشة سلاح. تطول المعركة بين القشة والناب.. قد ينتصر العصفور!.

قال له ضاحكاً: حبيت رسما تـك وما حبيت قصتك.. السولافه اللي ما فيها كذبة تهز السامع مش قصة.

قال عماد: لكن هاي قصة رمزية مش سولافه، يعني تخيل القشة في فم إنسان..

- هو هو هو.. إنت تتباهى بالكذب؟.. حلوا!

- هاي قصة مش كذبة.. فيه فرق..

القصة كذبة، لكن الناس يصدقوها، أما أنا.. حتى لما أحكي الصّحيح يروح بسوق الكذب. مشان هيك أحتفظ لنفسى بالصّحيح والسليم، وأبيع للسوق بضاعة معطوبة.. أكذب. هو هو. أنا الراح!

حذفه الرفيق من دائرة اهتمامه، واستدار إلى القط يناكفه.

- طلعت من المولد بلا حمص.. وأكلت "فروجة" من الشرطة، ونمت ثلاثة أيام في القبو، وما طلع لك شي. ظليت مثل ما أنت تنام في المزدوان..

- هههه.. (ضحك القط من قلبه) هيك أخف.. كيف بدى أطيّر وحلي ثقيل؟..

فاحت رائحة الياسمين في روح عماد، وشعر بجناحين ناعمين يرفرفان داخله!

مها

بعد تردد، طاوخته قدماه بالذهاب إلى شبك الزيارة، وهو يعلم أنها هناك..

كانت تحمل زهرة ياسمين بين السبابة والإبهام!

بادرته بالسلام!

ردّ عليها التحية بمودة..

قالت بحماس: شاركت باعتصام في الجامعة..

كان والدها المهندس منشغلاً بالحديث مع أمها عن اتصالاتها بالمسؤولين.. وترك الغزاة تتحدث مع زميلها!

دار الكلام بينهما بيسر.. امتدّ خيط الكلام وتشعب، السؤال يسحب إجابة، والإجابة تمدّ خيوطاً من الملاحظة والاستفسار. هل صمت المحيطون بهما؟.. دورة الكلام تزداد قوة وحميمية، فتعزلهما عما حولهما.. دار فيهما شبك الزيارة الكثيب مثل دولا ب العيد، وانفتحت قنوات جديدة للفرح، وتقطع كل ما بقي من خيوط الحذر والتحفظ.. لم تعترض أمها؛ بل رمقتهما بنظرة مجاملة.. لم يتوقفا عن الكلام رغم صفارة الشاويش يونس معلناً نهاية وقت الزيارة..

- كأننا نعرف بعضنا بعضاً من ألف عام..

.. -

- لابسين مثل بعض.. بنطلون جينز وقميص أبيض وشوز رياضية!

..

-
- صدفة؟ ولاّ فال..
 - .. -
 - أريد أن أشرب..
 - .. -
 - من ماء راحوب؟
 - .. -
 - عرفتك قبل أن تعرفني.
 - .. -
 - رأيت صورتك على قصاصات متطيرة في ساحة الجامعة تطالب بالإفراج عنك..
 - .. -
 - سرعان ما تختفي..
 - .. -
 - إذا صادف أن لاذت ورقة عن أعين الحرس الجامعي كان الطلاب يخافون التقاطها، ويهمسون لبعضهم محذرين: "مناشير.. مناشير".
 - .. -
 - تجرأت والتقطت واحدة واحتفظت بها بين أشياءي الخاصة..
 - .. -
 - وما زالت.

- .. -
- ضحكت: إذا حوكم أبي سيعلق معه كثير من الناس اللي فوق.
- .. -
- سيفرج عن أبي قريباً..
- .. -
- صرت أباهاى بين زميلاتى أنى أعرفك شخصياً..
- .. -
- يسرنى أن أرى رسوماتك.
- .. -
- أحب أن تكتب لى..
- .. -
- زهرة ياسمين..
- .. -
- لك. ألم تقل أنك تحبّ الياسمين.
- تأجج بياض الياسمين التى فى صدره، وشعر بأريجها يتمدد فى عروقه!
- يستعيد عماد كلّ كلمة قالتها.. يُبحر فى عمق عينيها العسليتين، ويسترجع عقصة شعرها الأحمر المطعج، وفتحة قميصها الأبيض على الصّدر الناهد، ولون حزامها الأسود اللامع على الخصر المخصوص كثيراً.. ودرجة الأزرق فى الجينز الضيق.. استرجع كل ظل ابتسامة،

وكل هزة لغرتها، وكل غمسة عند أنفها.. ولا يستطيع تذكر ما قال هو،
أو كيف تصرف!

يدور في باحة السجن مع الدائرين، ويرأى حول فكرة واحدة:

- هل ستزورني مرة أخرى؟..
- ولم تزورني!.. لأنني كنت أردي مثلها قميصاً أبيض وبنطلون جينز وشوز خفيف؟! هي هي هي.
- لن تزورني.. ولم تعرض نفسها لمساءلات أمنية؟
- لكنّها أهدتني زهرة ياسمين..
- سأعطيها ما كتبته لها يعد أول لقاء.. كأنني أحبها.
- لم يشعر أن القط يسير بجانبه إلّا لما انطلقت صفارات الشرطة لإغلاق المهاجع..
- وضع يده على كتف عماد، فأنحنى قليلاً لتقبل المجاملة.. قال وعيونه تشع ودأ: تظنّ هي كمان تحبك!
- ضحكا..

في الغرفة البيضاء بدا البشّمهندس ودوداً منشراح الصدر.. وبعد يومين أفرج عنه..

شيعة عماد وحسن إلى الباب الداخلي، بدا البشّمهندس متردداً وهو يشد على يد عماد، ثم استدار إلى حقيبة أشيائه، وتناول مغلفاً أبيض ناوله لعماد..

- لمن؟ سأل عماد مرتبكاً.

- اقرأها على مهلك.. قال البشمهندس!

- (لا أدري هل أحب هذا الولد أم أكرهه!

لا أدري هل هو خصمي، أم مرآتي؟

حضوره يربكني.

ربما هو لا يدري ما فعله بالغرفة البيضاء ونزلائها السبعة! بحضوره صرنا موضع مقارنة، أمام أنفسنا وأمام الآخرين؛ فارتقت حواراتنا، وتحضرت سلوكياتنا.. صار للسجن معنى، وللزمن حضور، وللقيم سطوة..

لا أعرف رأيه فينا، لكننا في الغرفة البيضاء كنا أكثر انحطاطاً قبل انضمامه إلينا..

إذا شطحت سأقول إن معالي الوزير مات قهراً.. هذا القهر ما كان يمكن أن يكون قاتلاً لولا حضوره الاستفزازي.. مجرد مقارنة "جريمته" بخطايانا هو استفزاز!

آه يا عماد.. لو تدري؟

ربما خاصمناك لأنك كشفتنا أمام أنفسنا..

ربما كرهنا حضورك، لكننا أحببناك رغم أنوفنا.

لعل التعود هو مصدر البلاهة الإنسانية!.. مع الزمن ينام الضمير، فلماذا أيقظته يا بني؟!

هل أعتذر لك نيابة عنهم؟.. هل جئنا أن نصطف معك؟!..

هذا لا يكفي. هو ليس اعتذاراً ولا جبناً.. واجهناك بنوع من تأكيد الذات، ولو بالإصرار على الحماقات..

الإنسان المهزوم يخاف من استحضار قناعاته الوجدانية، ويتستر بأقنعة مستعارة يخفي وراءها خواء يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال، ومع الزمن يستمرئ الخذلان، ويغطيه بتسويغ ما هو عليه الآن..

لما كنت في مثل سنك يا عماد؛ كنت شيوخياً متحمساً.. وفي موسكو حيث درست الهندسة كنت متعصباً للحزب، وللاتحاد السوفياتي، ولمبادئ السلم والاشتراكية.. ولما عدت إلى الأردن استنكرت الحزب، وسرت مع التيار.. وصرت لا أفوت فرصة للسخرية مما كنت فيه. ليس لأنني ناقد حاذق، بل لأن الماضي يلاحقني.. ألا ترى أن المرتدين أياً كانت معتقداتهم هم الأشد شراسة في معاداة ما ارتدوا عنه!

مهلاً. مهلاً. لا تظن باعترافاتي هذه أنك هديتي سواء السبيل، وأني سأرتد ثانية إلى أفكار تخلت عنها، وقناعات هجرتها..

ما أريد قوله لك:

إن من خان روحه مرة، لا يستطيع أن يثق بشيء..

لا تخن روحك يا بني..

بوفاة معالي الوزير، والإفراج عن المهندس نقصت هيبة الدار البيضاء، وتراجع نفوذ نزلائها لدى الإدارة.. فقد صارت محطة للعابرين من أقارب المسؤولين المحليين الذين يُسجنون في حوادث طارئة لأيام معدودة مثل: حادث سير. إطلاق النار في عرس. طوشة عشائرية.. حتى إنه في بعض الليالي كان يُشتقّ فيها مردوان لينام فيه الضيوف العابرون..

كل هذا كان يمر، وعماد سابح في ملكوت آخر! بعد رسالة أبيها شعر
بها أكثر قرباً..

رسمها بالكوبيا المشع، رسمها تركض في كروم راحوب.. ابتسم
لصورتها..

أخرج زهرة الياسمين الجافة، وحاورها:

- تحبني.. لا تحبني..

- ولم تحبني؟

- تحبني..

- لا تحبني..

- كم يرواغني الياسمين؟!!

مجانين

جاءه القط متوعكاً، جلس معه عند قهوة الطموني، وطلب له كاسة شاي وسيجارة كمال. رفض السيجارة فدخنها عماد، وسأل القط: ما عندك شغل اليوم؟

طلب القط من الطموني كشتبان سكر زيادة، ذوبه في شايه، وارتشف رشفة طويلة بتلذذ، وقال: صاحبك تعبان يا رفيق.

- سلامتك.

- ما قدرت أظير امبارح.. كل أحلامي صارت كوابيس.

ضحك الرفيق: يا خسارة! مين يطير فوق إربد ويخبرنا أحوالها..؟

- ظهري! ظهري محلول يا رفيق.

- هاي كرمه حلت ظهرك.. ههه

- آخ يا ظهري.

..

اصطحب عماد صديقه لعيادة السجن..

- ظهري ي يا دكتور.

- تشتكي من شي ثاني؟

- كل شي يؤلمني..

تدخل الرفيق: أرجوك يا دكتور تهتم فيه.

- ليش على راسه ريشة، ولا نظمتوه معكم بالحزب.
 - أرجوك إذا صار له مكروه مين يحلم لنا.
 ضحك الطبيب: صار يلزم طبيب نفسي.. يفهم عليكوا.
 تأوه القط: أرجوك يا دكتور ما أقدر أركب حنفية.
 نظر الطبيب إلى رجل المباحث، وقال: يمكن دسك لازم صورة أشعة.
 فتح الرجل ملف القط، وقال: القط ما يطلع من هون إلا إفراج أو ميت.. ثم توجه له قائلاً: هاي ملفك قدامي. ما نسينا حصوة الكلية يا قطيط.
 قال القط متمسكاً: أرجوك ما ظل علي إلا كم شهر.. ما رح أهرب.
 ردّ رجل المباحث: قِبْ! منك وورا .
 قال الرفيق لرجل المباحث: تتحمل المسؤولية إن صار له شي.
 - طز. وزير بحاله مات عندنا، وما صار شي.
 نظر الطبيب إلى الرفيق بتعاطف، وقال: أنا كتبت له تحويل للمستشفى والباقي مسؤولية الإدارة.
 وضع القط يده على أذنه وراح يغني:
 (حن الحديد على حالو وانت ما حنيت
 لو كنت تدري بحالو من زمان حنيت..)
 طرب الطبيب: صوته حلو..!
 قال رجل المباحث: وسكوته أحلى. امش يا قطيط بدنا نشوف غيرك.

خرج القط بصحبة الرفيق، ودخل حسن..

دار عماد مع القط أكثر من عشر دورات في ساحة السجن، وفجأة ابتعد القط خطوة، وفرد ذراعيه إلى آخر مدى، وقف على رؤوس أصابعه.. وفتح خياشيمه إلى آخرها.. واتسعت ابتسامته حتى أذنيه ورقص..

- خدعتني. انت مش مريض!

- ما زبطت الحيلة. كنت مشتاق لشوارع اربد.

فرطا من الضحك.

فعل عماد مثله، فردا ذراعيهما. فتحا عروتي أنفيهما على آخرهما. ابتسما. نقرا الأرض بأقدامهما. تمايلا. تموجا.. رقصا بمرح غير عابئين بتجمهر المساجين حولهما.. ولا بتعليقاتهم الساخرة:

- انجنوا..

- شو شاربين؟

- شو شامين!

- ها ها ها ها ها

- مجانين.

صفق القط بكفيه إيقاعاً جميلاً فصفق عماد. وصفق المتفرجون.. وما لبثت الأصوات أن هدأت، وانتظم الإيقاع.. ترت تو.. ترت ترت ترتو..

انهمر رذاذ ناعم يؤجج حماسة المحتفين، وانطلق صوت القط:

خايف كون عشقتك وحببتك.. ويكون الهوى رمانى بيتك

ونطير ليلية نشتاق ليلية.. خبرنا شو صار يا طير العشيّة..
 انتقلت عدوى الفرح إلى كلّ زوايا السجن.. فارت الساحة بالمساجين.
 أصيب السجن كلّه بمس من الجنون. حتى المأمير الخمسة، والشرطة في
 الأبراج رقصوا، وعلت الزغاريد في سجن النساء..
 انهزم المطر ولم يتّقه أحد!
 استمر الصخب حتى انطلقت صافرات الشرطة منبهة المساجين لموعد
 الدخول الى المهاجع..
 خرج عماد من حلبة الرقص إلى فرحه الخاص..
 كتب:
 زيارتك تحلّ ألف عقدة في حبل روحي، تحول الانتظار، وهو رمضاء،
 إلى حرائق وبساتين.
 انت جنّتي التي أحملها في صدري أنّى اتجهت..
 صرتُ أسير في هذا المكان المسحور وفي عيني نور، وفي قدمي عزم.
 ياه..
 الصّبح قريب وأنت بعيدة .
 أنتِ قريبة والصّبح بعيد.
 أنتِ بعيدة والصّبح بعيد.

مرجعت الشتوية

رجعت الشتوية، ورياحها المتقلبة ثشتت صوت فيروز الدافئ: (رجعت الشتوية.. ظل افكر فيه.)

رجعت الشتوية وأفرج عن السيد مالبورو، وأعيد للخدمة في وزارة أخرى! وزار السادات الكنيست الإسرائيلي في القدس المحتلة! وعقد أبو علي كناري صفقات عقارية غير ناجحة، و"زحلق" في واحدة منها فأقام منافسه دعوة ضده، فتأجل الإفراج عنه لحين البت فيها.. (يبدو أن تلك الحادثة لخبطت كيانه.. وسيظل زقرط السجن يعيرونه بها كلما دق الكوز بالجرة)

نقل عساف إلى سجن الزرقاء رغم أنه لم يبق من "محبوسيته" إلا شهر لأنه نصب على مدير السجن نفسه..

(كتب له تقارير مبالغ بها عن وجود ذهب مع المساجين، وهذه حقيقة لكن بشكل قليل ومشروع: خاتم. سنسال. ليرة عصملي..

ثم وشوشه أن بإمكانه أن يلم له الذهب من المساجين بسعر بخس..

- لا يكون مسروق يا عساف؟

هنا كشف عساف نواياه لحضرة الضابط.. رغرغ حرف الرء، وهمس: مسروق. منصوب. منهوب. انت يهملك تربح.. القرش يرمي قرشين بأسبوع زمان!

وباعه كيلو ذهب "فالصو")

الضابط لم يجرؤ على فتح قضية ومحاكم لعساف، وبكل ما عنده من
صلاحيات استطاع نقل عساف إلى سجن آخر.. لكن في السجن كل
شيء مكشوف!.. حتى قصة عماد مع بنت المهندس.. (اللي ظلت
تزوره بعد ما طلع أبوها) صارت مكشوفة..

ما علينا، لقد كان عماد منشغلا عنهم بها..

قال له الأمير الصغير:

[- إذا أحببت زهرة توجد في نجمة فإن من الرائع ليلا، تأمل السماء.
كل النجوم ستكون مزهرة.. الشيء المهم لا يمكن رؤيته. يمكن
الإحساس به.]

رجعت الشتوية، ومرّ عيد الأضحى، ومضى عام على وجود عماد في
السجن!.. كان ذلك منذ زمن يبدو اليوم بعيداً. زمن صارت معه
الشوارع والمدارس والجامعة والقرى نائية.. قريته حواره تبعد من هنا
مسير ساعة على القدمين، وخمس دقائق في السيارة لكنها بعيدة.. كل
الأماكن التي كانت أليفة ومألوفة يراها مغلقة في البعد، ويتساءل:

- هل حقاً كنت هناك؟

رجعت الشتوية، قصر النهار وطال الليل، ودخلت جيوتي عضواً في
الجامعة العربية، وفرح الرفيق بفوز منظمة العفو الدولية بجائزة نوبل
للسلام لأنهم كانوا يرسلون له بطاقات تضامن تنتهي بعبارة:

keep your thump high ..

وعرض تلفزيون أبو علي كناري الجديد برنامجاً عن وفاة "ملك الروك،
الفس برسلي" بجرعة زائدة من المخدرات، مما أربع متعاطيها في
السجن..

رجعت الشتوية، وسرت بين المساجين الشائعة الأكثر رواجاً: عفو
ملكي قريب.. (تبيض سجون ع راس السنة الجديدة)!

صار يعرف أن إشاعات العفو ليست إلا رغبة الأمانى الدفينة.. لكنه
استعان بهذا الوهم الماكر ليخفف مرارة أيامه..

رجعت الشتوية، وجاء كانون صريحاً بعدوانيته: برد قارس ومطر نزق.
هلت "المربانية" وغير المطر إيقاع ضجيج السيارات الصاعدة إلى التل
والهابطة منه..

رجعت الشتوية، وانتعش الياسمين، وزادت الأيام الماطرة، وصارت
طلّة الشمس مرغوبة، وظلّت مها مواظبة على زيارته كل ثلاثاء، وأمه
تواظب على زيارته كل جمعة..

رائعة زيارة الأم يا مها.

تحدثنا عن الدار، وشجرة الياسمين، والموسم الزراعي.. سألتها عن همّة
والدي معها فزجرتني.. تنقلتُ معها بين التفاصيل؛ تحدثتُ عن الأحوال
والخالات.. الأحفاد والحفيدات..

أختك خلّفت ولد سمته على اسمك.. تلمع عيناها بفرح طفولي وهي
تقول: صاروا سبعة بحواره على اسمك..

لا تتكلم كثيراً، لكنها تشد أزرى بطريقة لذيذة لا تجيدها إلا الأمهات:

- ما يقطع الراس غير اللي ركبه..

(أتحسّس عقد الخرز في جيبي. أهم بأن أخبرها عنك يا مها، لكنني لم أهتد لصيغة ملائمة..)

طابور الرجال أطول من طابور النساء على باب السجن.. يصل أبي متأخراً ومبلاً.. أجلّ أبي بإخلاص ومودة.. يسلم باقتضاب لكن بجرارة.. نتحدث عن أحداث العالم، وتندرج إلى أحوال العرب، وننتهي إلى سياسة قريتنا..

حضر عسّاف وحسن والقط والختيار ليسلموا على أهلي..

قبض عسّاف المعلوم من عمه الحاج.. وسلم على أمي، ومضى.

جامل والدي حسن، وسأله: مطول هون عموه؟

قال حسن: حكومي 27 شهرا، مضى عشرون، وبقي سبعة أشهر.

قال أبي: هانت. اللي ينقص يخلص. وانت يا سعيد؟

ضحك القط: بعد علي ثلاثة شهور.. والله ما يفرحوا فيهن..

وضع يده على كتفي مجاملاً، وتابع: ما بطلع غير أنا وهالشبل.. رجلي على رجله.

ضحك والدي، فقد تعود خفة دم القط، واستدار نحو الختيار، فلم يخرجه بالسؤال نفسه، بل قال: كيف الصحة يا بو محمد؟

- الحمد لله على كل حال..

قلت لأبي: الختيار يقول هون ناموا أجدادك قبل ما يسكنوا حواره..

قال أبي: هذا صحيح.. كانوا يحصدوا زرعهم بجوارة.. يخزنوا المحصول بالآبار والمغر ويرجعوا للتل.

وازن الختیار معقله، وقال: آه، حكيت للرفیق عن أيام سطوة البدو،
وضرایب العصملي، وحرابة البدو والفلاحین..

- ضحك أبي، والتفت للختیار: حكايا السلف يا بو محمد تورث عیالنا
مشاحنات قديمة هم في غنى عنها اليوم.

- تدخل القط: صادق يا حجي. كل واحد من كبار العشایر یدیر النار
ع قرصه، وما حدا یعرف الصّحیح..

تنحیح الختیار، فانصرفوا تباعا..

یشرب أبي شایه بتؤدة متنحياً قليلاً لأمي.. إنها تتحسّس وجهي وكتفي
وتتفقّد ملابسي.. وتدّعي دائماً أني نحيف، ولا ألبس ما يكفي لمواجهة
البرد..

[تل إربد الذي تلله الناس قبل 5 آلاف عام وجدت فيه آثار تعود إلى
الحضارة الآدوميّة، وآثار إغريقية ورومانيّة وإسلاميّة، أما مبنى السرايا
فيعود إلى العهد المملوكي، حيث كان يتم فرز قوالب الثلج القادم من
جبل حرمون وإعادة تغليفها، وإرسالها إلى مصر، ولما جاء العثمانيون إلى
البلاد، أعادوا بناء دار السرايا في زمن سليمان القانوني وفقاً لمخططات
سنان باشا (المتوفى 1580م)، وصار رمز سلطتهم في المنطقة، وأكد
ذلك الرحالة السويسري بيركهارت الذي مر بإربد سنة 1812م.. وبعد
خروج إبراهيم باشا من بلاد الشام 1841م آل البناء إلى الإهمال من
جديد.. ومر به الرحالة الألماني شوماخر عام 1884 م فوصفه:

(يعلو المدخل الجنوبي قوس ويؤدي إلى حوش مربع تحيط به صفوف
من العقود بنيت بالحجارة الجيرية والبازلتية، وعند باب الحوش ترتفع

عدة أدراج إلى الطابق الثاني. ويأوي إلى هذا البناء المشرف على ما حوله من سهول الرعاة واللصوص والمزارعون أثناء فصل الشتاء..).

ربما في هذه الفترة احتل اجدادي المكان واستانسوا به.

لما وطّد العثمانيون سلطتهم على إربد وجوارها مرة أخرى، رموا البناء ليصير مركزاً للدرك وسجناً منذ عام 1886 ميلادي (1304) هجري حسب النقش الحجري المثبت على واجهة بوابة السجن اليوم.. [

أعادته كتب التاريخ إلى القبو!

لو يمشي في السرداب الذي وصفه القط هل سيكتشف تراكم الحقب التاريخية وعمقها أم سيكتشف طاقة للفرج!

صار يرى نفسه يزحف على بطنه في سرداب. يرى ضوءاً في آخر النفق. الضوء يقوده إلى متاهة من السرايب.

كبس السرداب على مناماته؛ وسيطر القبو على أحلام يقظته..

قرر أن يدخل القبو، ويتسلل عبر سردابه، إما أن يجد كنزاً، أو يجد مخرجاً.. أو يغيب في السرداب كما غاب (الشاب مربع القامة، حسن الوجه أفنى الأنف، أجلى الجبهة، والشعر يسيل على منكبيه، الذي يعود ليملاً الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً..)

هذه المرة طوعاً؛ بكامل رغبته وإصراره تسلل مع القط إلى المنطقة المحرمة عند الباب الخارجي، ووقفاً يتفرجان على إربد مع الغروب، وهي تنفض ناسها إلى حاراتهم وقراهم حتى انتبه الحراس لهما فطلب الشاويش يونس منهما الدخول بلطف..

همس القط باسمًا: قلت لك.. تعودوا!

قال عماد: نفسي أبيت في القبو.

- ليش؟

- أشوف السرداب. أدخله..

- بدك تهرب..؟!!

رفرف طيف مها في باله مثل فراشة زاهية.

نظر القط في عيني عماد بود، وقال: تحبها؟

رد بفرح: آه. بحبها.. بحبها!

عاد إلى برشه جذلاً بالكلمة التي لفظها.. يشعر أنه اجتاز حاجزاً كان يتهيئه: أن يفكر بها. أن يعد حبات النمش حول أنفها غيباً. أن يستحضر جيدها وسنسال الذهب الناعم المدلى على لهيب فتحة قميصها الأبيض. مرحلة يختلط فيها الوجل بالشوق.

(أحبها..) عندما لفظها. سمع صداها يتردد في داخله..

خرج من القلق الجميل، ودخل في الجذل اللذيذ!

أضاء كناشه، وكتب لها كلمة واحدة كبيرة بخط النسخ:

(أحبك).

صمتت.. وهو يدور بمرح يسقي العطاش على شبك الزيارة.. ذلك الاحترام والنبيل الذي تجلّى لها وهو يقدم لها الماء.. بساطته وهو يلم الأكواب الفارغة.. ابتسامته الودودة رداً على شكرها.. هي أشياء لا

تجيد للمتها بكلمات.. كأن ماء راحوب في تلك الكاس الورقية الصغيرة هو ما سكب محبته في قلبها..

حضنت أصابعه الطويلة بكفيها الناعمتين.. ولم تقل: أحبك.

صمت.. ما جدوى الكلمات هنا!

حلّقا فوق نبع راحوب، وسهل حوران، وجبل عجلون، لعبا مع الريح.. رحبت برفيف جناحيهما الآفاق.. غرّدت لهما الطيور.. وتفتحت تحت ظلّهما الورود.

دار فيهما المكان، وحنّ الحديد على حاله، وصار شبك الزيارة مرجاً فسيحاً. وصارت المنسوجات الخرزية المدلاة حولهما متحفاً باهراً..

رن الجرس منهيّاً وقت الزيارات.. أهدته خصلة من زهر الياسمين بحجم الإبهام، وكتاباً بحجم الكف سحبه من بين دفاتر محاضراتها، لم يلفت انتباه الشرطة.. وأعادت له طوق الخرز!

أخرج رسالتها من جيب الطوق، وظلّ يتنسم شميم الحب، ويعيد قراءتها بفرح عسلي العينين..

(.. خيط رفيع من ماء راحوب نشب في ذاكرتي من أثر الزيارة الأولى، تسلل معي في دروب إربد، وذهب معي إلى مسطح أخضر في جامعة اليرموك..)

اشتريت سندويش فلافل وكاسة شاي. طلبت من عامل الكفتيريا أن يسكبها في الكأس الورقية التي احتفظت بها من شبك الزيارة، وجلست تحت شجرة التين، مقابل شلال الماء الصناعي حيث قلت لي انك كنت تجلس.. لم أجد من ملاحك في مخيلتي سوى ثنيتك المائلة قليلاً إلى

الخلف، وحب الشباب الذي يطفو على وجهك بغزارة، ومع ذلك صارحت نفسي بلا موارد أنني أرغب بزيارتك مرة أخرى، واقترحت على نفسي أن أحمل لك الزهرة التي تحبها..

حاورتك في مخيلتي، تخيلت الطريقة التي ستبوح لي بحبك، وأحضرت الرد، والابتسامة، وهزة الغرة أيضاً..

تدفق حضورك في روحي مثل ماء راحوب الذي يروي ويروي..

مثل ظلال شجرة التين المكتظة بالرغبة..

كالشلال الذي يشبه الشوق..)

لماذا يعيد القراءة بنهم، هل فاته شيء في القراءات السابقة؟!

بعد ليلتين أو ثلاث؟ هو ليس متأكداً.. بعد أن أصدر تلفزيون أبو علي كناري" وشيشه الختامي استل الكتاب يتصفحه فغمره عطر الياسمين!

.. ياه ما أجمل هذا النورس*! لو لم يكن يحب مها لعشقها لأنها عرفت على هذا النورس..

[إن أصعب طيران، وأهم طيران، وأمتع طيران، هو الطيران إلى عوالم المحبة واكتشاف معنى الحنان..]

- ياه كم أحبك يا مها!

- ما أروعك يا ريتشارد باخ!

[يكفي أن يفكر المرء بمكان ما، ويريد أن يكون فيه بكثافة وصدق، حتى تجعله الإرادة حقيقة واقعة..]

* إشارة إلى Jonathan Livingston Seagull طبعة Reader Digest 1972

نام والكتاب بيده. رأى حبيبته عند ملتقى غيمتين تغتسل في الزبد الحليبي. رقصا مع الغيم الأبيض. حلقا مع النورس جوناثان. هبطا مع غزلان الندى. ناما على ورق الياسمين. توسدا بتلات أزهاره البيض..

أفاق وعطر ياسمينها ينتشر في روحه مثل معجزة..

يبدو أنه وجد مرهماً لروحه، فقد فعل هذا الكتاب بجلده ما لم تفعله المراهم والمهدئات. رحلت الحساسية، واكتشف نعمة الصابون من جديد، وصار الكتاب رفيق مخدته، واحتلت مفاتن هذا الكتاب الصغير جزءاً كبيراً من زمن لقائه ومها على شبك الزيارة..

قالت بهيام: أحلم بأن أترجم هذا الكتاب ذات يوم..!

أمسك يديها بكلتا يديه عبر مربع القضبان..

- حبيبي..

لم يستطع أن ينتظر العودة الى كناشه لينيش ما يحمله العقد.. فرد ورقة زهرية مزدانة بفراشات يومياتها، قرأ غير عابئ بفضول مزاحيه على شبك الزيارة..

(.. ما أجمل كتاباته! ما أرقّ مشاعره. له عينان تفيضان حناناً ومحبة.. لما يضع مرفقيه على شبك الزيارة وينحني بشوق ليحدثني، أشعر برغبة جامحة في عناقه، وتقبيل كل حبة شباب في وجهه الوسيم. أحياناً، أود لو أمسكه من شوشة شعره المفلفل، وأقول له: بحبك يا عماد!.. لن أقولها له، إذا لم يقلها هو..)

ضحك: ما هذا يا مها؟ هل كنت مغفلاً!

أمسكت يده، وقالت ضاحكة: كتبتها أثناء محاضرة بليدة..

ظلّ العقد يروح ويحيي بينهما كل زيارة، والنورس جوناثان يرفرف بينهما معطراً فيض مشاعرهما برائحة الياسمين، ومؤججاً انثيالات أشواقهما بوعد الحرية. يتألق العقد باشتعالتهما واشتهاءاتهما، ويغص بعواطفهما دون أن يلفت انتباه أحد.. فشبك الزيارة مشنشل بالخرزيات التي يتداولها المساجين والزوار.

يوم الثلاثاء. أول كانون 1977م

استيقظ الساعة الخامسة والنصف لأكتب لك.

الضوء يجلل الكون، ويعطي ساحة السجن مسحةً من بهائه.

عصفور ينقر شيئاً ما خلف الشباك الشرقي. عصافير السجن متشابهة كأيامه.

(.. لست أدري أهو عصفور بعينه أم أن هناك تبادل مواقع بينه وبين عصافير أخرى. لكنني أرى دائماً عصفوراً واحداً على نافذتي. زقزق وقفز لما انتبهت لحضوره. حملته لك (مرحبا) وابتسامه.. كنت سأحدثه عنك.. ضجيج سيارة عابرة أبعدته عن نافذتي. طبعاً لم أرها. النافذة أعلى من الشارع بكثير. إذا مررت من أمام مدرسة حسن كامل الصباح قد ترين العصفور يتقافز على لفة الأسلاك الشائكة بانتظارك.

الساعة السادسة صباحاً فتحت المهاجع. يفور المساجين إلى الساحة.. يبقى ست ساعات لأراك. كيف ستمضي الـ 360 دقيقة القادمة؟!

قهوة وجريدة: أقرأ الأبراج قبل أن أقرأ مقال بدر عبد الحق.. لا أهتم بما تقوله الأبراج، فقد رأيتهم في مكاتب الجريدة كيف ينسخونها من

صحيفة أخرى كيفما اتفق. لكنني عندما أقرأ برجك أشعر بنوع من التواصل الحميم معك.. اطلعت على أسعار الخضار أيضاً!
الآن علي أن أستحم، وأحلق ذقني، وأتجمل مستمتعاً بلحظات انتظارك.
(أحبك.)

أخرج ورقة "الاستنكار"، قرأها على مهل كأنما تخصّ شخصاً غيره..
كعبها بلا اكتراث وقذف بها إلى سطل القمامة عند الباب. شعر بضياء
مرح يتتشر في صدره، وكتب بمرح:

أحب الياسمين. أحب الدحنون. أحب نبع راحوب. أحب اللون
الأزرق بلون السماء.. أحب الأمير الصغير والنورس جوناثان. أحب
القط والختيار. أحب كرة القدم وبابلو نيرودا وعزيز نيسين وإميل جيببي
وسلفادور دالي وغويا وجواد سليم وسعدي يوسف وكزنتزاكس
وكرايسكي. أحب فيروز وأمي. أحب أبو موسى وأبي. أحب مارسيل
خليفة وفرقة الطريق وعبد الحليم حافظ وابن الرومي والخيّام. أحب
الغيم والقمر وعرار ووصفي التل وجدّي. أحب هو شي مته وكاسترو
وعبد الناصر وهواري بو مدين وأخي. أحب العصافير واليمام
وأسراب طيور أبو سعد. أحب بودابست والعقبة وحوّاره والإسكندرية
وتونس. أحب خالتي أمينة وعمي سليم ومعلمتي الأولى نادية أبو رحمون
وأختي نايفة. أحب غوار وانتوني كوين ومنى واصف وفرقة الأبا. أحب
دستوفسكي ووالث ويتمان وهمنجوي وأرسولا أندروز. أحب سورة
الرحمن ونشيد الأنشاد والمزامير.. أحب المشي. أحب المطر. أحب الليل.
أحب الصّباح. أحب الزيت والزيتون والخبز واللبن والخبيزة.. أحب
تذوق الأشياء على مهل.. وبقدر ذلك كلّه أحبك أنت..

بين ثلاثاء وثلاثاء كبرت الرسائل: ورقة. ورقتان. ثلاث.. حتى ضاق
بها جيب الطوق..

سلّمت عليه كالعادة بيديها الناعمتين.. تمعّن في عقدة إصبعها الوسطى
كانت زرقاء محبّرة وناتئة قليلاً..

قال: مجتهدة.. وقالت: في الكتابة لك.. وضحكا..

- طلعنا مظاهرة ضد زيارة السادات للقدس. (صارَت تطول وتبدو
أكبر من سنّها)

.. -

- وسط المدينة، سكرنا شارع السينما. (ودّ لو كان معها.. ليحميها!)

.. -

- رح يحبك رفاق جدد، دير بالك عليهم.. (بدت له مثل أخته!)

- .. نظموكي الرفاق؟.. (شعر بها بعيدة)

قالت بفرح طفولي: أنا طلبت ذلك. (كانت عيناها تضحكان.. غامت
عيناها)

توقّعت أنه سيفرح.. لكنّه شعر أن شيئاً ما أثقل صدره!..

ودّعها بيدين متعرّقتين، وعينين زائغتين!..

هذه المرة فتح طوق الخرز عن ورقة مختلفة!

[خاص - تقرير إخباري للكوادر المتقدمة في الحزب.

في 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 1977م فجر السادات مفاجئته أمام
البرلمان المصري وقال: أنا على استعداد للوصول إلى آخر الأرض من

أجل السلام، وحتى إلى الكنيست نفسه.. وبعد عشرة أيام قام السادات بزيارته إلى القدس الشريف، وتخلّى عن مؤتمر جنيف والنهج الرامي إلى تحقيق سلام شامل. أحدثت زيارة السادات إلى القدس فوضى وانقساماً في العالم العربي. بعض القادة العرب أيد المبادرة، وعارضها آخرون، فيما أثر بعض آخر الانتظار ليرى ما يمكن أن تصبح عليه المواقف.

إن العرب لن يستطيعوا استعادة حقوقهم إذا جاءت مساعي تحرير الأراضي العربيّة المحتلة والتوصل إلى سلام عادل بمبادرة من جانب واحد أو جزئي أو غير ملتزمة بموقف عربي مشترك.

يتحدث السادات عن كسر الحاجز النفسي الذي كان يشكل، على حسب قوله، 90 في المائة من النزاع العربي الإسرائيلي. وصار السلام يمكن تحقيقه دون انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة!!.. إلا أن السادات لم ينجح في اختراق الحاجز السياسي للسلام، وعلى وجه التحديد رفض حزب الليكود الانسحاب من الضفة الغربيّة. وفي هذا الجانب فشلت زيارة السادات..]

يحرق التقرير، ويفكرّ بمهما: ماذا لو تعرضت للملاحقة، أو فصلت من الجامعة؟ هل يعتبر نفسه مسؤولاً عن أذيتها؟.. يراها أختاً.. رفيقة.. يتذكر قصة تداولها الرفاق عن رفيق بدوي أراد أن يتزوج فاقترحوا عليه "فلانة" فقال لهم. (اخسوا يا شينين هاذي رفيقة ما تجوز لي..)!!

ضحك، ثم اغتمّ.. فكرّ في رفاقه الذين يتعرضون الآن للضرب والشبح والعزلة، من منهم سيصمد، ومن سيمزط.. غصّ القهر مرأً يابساً في حلقة. إلى متى؟!..

يوم الجمعة زاره أخوه..

- ..
- لما هجم الدّرك مزطت..
- أحسن. لو مسكوك شو بدّه يصير بأمي!
- يضحك أخوه: أمي تقول؛ طرقتنا عين الحسود، وصرنا من المغضوب عليهم.. قلت لها؛ ميش أحسن ما نكون من الضالين يّه..
- ضحكا..
- شفت مها بالمظاهرة، بنت قد حالها..
- أطرق الرفيق، ولم يجب.
- شو؟.. فكّرت رح تنط من الفرّح؟
- لسه صغيرة ع المظاهرات..
- ليش! أول مرّة طلّعنا مظاهرات كنا أصغر منها..
- بصراحة ما بدي تنشغل بالسياسة..
- هذه أنانيّة!.. ثم ضحك أخوه متابعاً: هذا موقف رجعي..
- يحاججه: لما عرفت إنها أختي انتسبت للحزب زعلت!
- زعلت لأنني ما بدي تصير شيوعية مثلك.
- قصّدتك حزبية.
- ضحك أخوه: خيوه معك حق.. هاي جينات تخلف موروثه، بدنا زمن ل نخلص منها.
- عاد من شبك الزيارة مؤرقاً بالأسئلة..

لا. ليس صحيحاً أن: (اللي تحت العصي ليس مثل اللي يعدّها).. يقشعرّ بدنه عندما يتخيل "مسلسل التحقيق" الذي أجتازه يتكرر مع رفاق له يعيشونه الآن!

الألم المربوط يتحلّب من الذاكرة، ويكوي الروح بأثر راجع. كأنه هناك كان غارقاً بالتفاصيل التي كانت مجهولة له.. أما الآن: يشعر أن الألم الحقيقي يأتي من استرجاع الشريط كاملاً: الشتم، الصفع، الضرب، الفلقة، الفروجة، الشّبح، خيط النايون، العزلة.. ثم مرارات السجن ومفاجآته..

- أخ يا سني!

نام نوماً متقطعاً. وكلّما غفا يعاوده ألم الأسنان يتناوب مع الكابوس نفسه..

يرى خيالات رفاقه مباحة للفلقة والفروجة والشّبح فيفرّ مذعوراً ليجد نفسه في القبو يتحسّس الجدار حجراً حجراً بحثاً عن حجر قابل للزحزة فيقشعر جلده يأساً..

يرى رفاقه يتسمون له فرحين بكلبشاتهم. يهبّ لملاقاتهم رافعاً إبهامه، فيصطدم بباب السجن.. ثم القشعريرة ذاتها أمام الجدار المصمت.. فزّ من نومه مذعوراً، فشعر بحب السמיד يطفر على جلده..

خلايا جلده صارت إبراً تأكل نهاره، وتؤرق ليله.. ولم يعد العصفور جوناثان قادراً على هدهدته حتى ينام!

فحصه طبيب السجن، ورطن للممرض: "...سكيس"

* scabies مرض جلدي معدي.

حاول إقناع الطبيب أنه لا يعاني من الجرب، بل هي الحساسية، فزجره الطبيب بعنجهية:

حضرتك طبيب!.. تعال اقعد محلي.

دهنوا جلده بمحلول الكبريت ذي الرائحة الصفراء التي تجلب الغم، وعُزل في غرفة منزوية من غرف الإدارة في الطابق الثاني..

شعر بالعزلة كما لم يكن يستشعرها في الزنزانة، وأزعجته حكة جلده كما لم تؤلمه دبابير "يوم الدبس".. وفجأة استحوذ ألم الأسنان على آلامه كلها!..

في اليوم التالي كان غير قادرٍ على تمييز الرّحى التي تؤلمه.. كل أسنانه تلمع ألما كما لو أنها موصولة بتيار كهربائي!

توسط له الباشا ذاته ليسمحوا له بالذهاب إلى طبيب الأسنان!

اجتاز باب السجن.. لأول مرة يتفحص البوابات والمساحات والأقفال باهتمام.. كأنما يبحث عن حجرٍ فالت في الجدار!

أخذ طبيب الأسنان احتياطاته من العدوى، وفتح فم مريضه على آخره، وضع ساحة اللعاب تحت لسانه، وراح يكيل الانتقادات للاتحاد السوفييتي الذي لا يناصر العرب ضدّ إسرائيل كما ينبغي، ويكيل الشتائم للشيوعية حسب فهمه لها.. فيما عماد يفكر في النورس جوناثان:

إنه ليس شيوعياً، لكنّه منع من حق الكلام، وطرد من القطيع لأنه اكتشف أن الطيران هو الحرية، وعليه أن يدفع ثمن هذه الخطيئة!..

أنهى الطبيب عمله وموعظته معاً، وكتب له وصفة أسبرين.. حبتان عند
اللزوم.. وأوصى بأن يفحصه طبيب الجلدية المختص..
أخذت ممرضة الجلدية خزعة من البثور وأرسلتها للمختبر..
ليلاً، في محجره الصحي فوق القَاووش الجاني، زال أثر البنج.
آخ يا سني.

العزلة، وألم الأسنان فتحا على سؤال العمر.. يشعر أنه عاش عمراً
طويلاً.. كأنه كبر في سنة، عشر سنين!

يفكر بالمظاهرات، ويقلق على مها، ويتألم من أجل الرفاق المعتقلين..
عندما يكون تفوق الخصم طاغياً وحاسماً فليس أمام الضحية إلا القشة
تحميه من البلع!..

لما كان يناظر زملاءه في الجامعة، كان يجد الصامدين البواسل بحماسة
رومانسية، ويصف المستنكرين والمستسلمين بالمتساقطين بلا هوادة..
الليلة يجد عذراً لهؤلاء، وهؤلاء! لا يساوي بينهم، لكنه لا يحتقر
الضعف البشري..

(نحن نناضل مجتمعين موحدّين، ونواجه العسف والتعذيب فرادى، كل
واحد حسب طاقته الروحية..)

تنهد قائلاً: كل شاة معلقة بعرقوبها.. تناول حبتي أسبرين، ونام..

يراها تطير معه بين غيمتين. تغتسل في زبدهما الشفيف.. تهبط مع
غزلان الندى.. تتوسد بتلات الأزهار.. ينهمر شعرها الناري على
وجهه.. وفجأة يصطدم بباب السجن، ويجد نفسه أمام جدار مصمت..

أنقذه تقرير المختبر من العزلة، وأقر طبيب السجن بأن جلد عماد يعاني من الحساسية.. ولم يصرف له علاج الـ"فاليوم" لأنه محظور تداوله في السجن.

.. عاد إلى مخدّته في الغرفة البيضاء، تناول كتاب النورس جوناثان ليفغنستون، من تحت مخدّته، فتحه ففاحت منه رائحة الياسمين، صار يقلّب أوراقه كيفما اتفق، فقد حفظه عن ظهر قلب..

[ها هو جوناثان يكبر دون أن يشيخ، وإنما تزداد طاقته على التحليق بشكل مذهل. ويطير ويطير، وذات مساء، يفاجأ جوناثان بوصول نورسين شفاين أجنحتهما من نور، ويأخذانه إلى بلاد النوارس التي تجيد التحليق، لكنّه يكتشف أن خلف هذه السماء سماء أخرى، وخلف معرفته بالطيران معرفة لا تنتهي..]

يهتزّ ذلك الوتر تحت الترقوة معرباً عن الشوق لاكتشاف سماء أبعد من رقعة سماء السجن.. عن التوق للتحليق، للطيران إلى بلاد النوارس التي تجيد التحليق، ويصرخ: آخ يا سني!..
تناول حبي أسبرين ونام..

(لما أخضرّ المرعى مرضت العنز!).

قاربت سنة 1977م على ختامها، وقارب يوم الثلاثاء على أن يفرط، ولم تأت.. هل حصل لها مكروه؟..

حفّ عارضيه مرتين، وأدمى حبّ الشباب، وغير قميصه مرتين بسبب نقط دم تائهة. لسع بشرته بالكالونيا، وانشغل طويلاً بهندامه..

يُطرق أمام فنجان قهوته عند زاوية الطموني، شعر بأنفاسها تمرّ على
دبابيس روحه بجنان رطب، وتنعشه بقشعريرة لذيدة..

يوقظه من سرحانه صوت حسن، فيضطرب كأنما لو كان يتجسس على
أفكاره..

- وين سارح، صار لهم ثلاث مرّات ينادون عليك زيارة.

كمش شتات أفكاره كيفما اتفق، وقام راكضاً يكاد يتعثر بفرحه..

لم تكن هي، بل هو! .. كان الرفيق الذي يدسّ ورقة في كمّه على شبك
الزيارة.. قال: حملة اعتقالات جديدة!

- بسبب المظاهرة؟

- بسبب السادات.

..

- بدك شي؟ .. ما رح نتصل فيك الفترة القادمة.. تعرف.. طوارئ.

- ومها..؟

- لقد منعوها من زيارتك..

- من؟ .. أهلها!

لاذ الرفيق الزائر بصمت رملي المذاق.

- من؟ الجهات الأمنيّة؟!

تابع الرفيق الزائر صمته، ثم تنهد قائلاً: بل الحزب!..

كأن الرفيق الذي يزوره يستلّ فروع الياسمينه من عروقه!.. تتمم بما قاله
أبوه عن الحكومة قبل عام: (خرا على هيك حزب)، وتظاهر رفيقه بأنه
لم يسمع!

آه يا قط. بودي لو استعير صوتك واصرخ:

أوف. أوف.. أوف حتى تنشق السماء.

* * *

القط !!

هل مرّ يوم؟

التعوّد يقتل الزمن!.. لما سأل الختیار ماذا يقصد بقوله: إياك وتعوّد السجن؟.. ضحك الختیار.. ثم تنهّد متحسراً: الواحد منا لا يتعلّم إلا من وجعه.. والعصر، إنّ الإنسان لفي خسر..

يسير وحيداً في الساحة على غير هدى، ولا يتّقي زخات المطر.. تسلّل القط إلى مساره المحموم حول حوض الماء، ومشى إلى جانبه فلم يعترض.. بل بشّ له متوقّعاً أن يقول أو يفعل شيئاً يبدد غمامة الحزن التي أرسلها له الحزب.. لكن القط ظلّ صامتاً.. لما أطلّت الشمس من خلف السور مقنعة بالغيوم، تناول القط مقعدين من مقهى الطموني المغلقة بسبب المطر. وسحب عماد من كمّه إلى زاوية لا يراها إلا رذاذ المطر، وجلس قبالة..

ابتسم عماد: خير يا طير..؟

- تحب تعرف مين القط يا رفيق؟

رفع عماد حاجبيه.. فقد كان يفكّر في مها، وليس به رغبة أن يسمع شيئاً عن سواها.. لكن القط أسند كوعيه إلى ركبتيه، ووضع قبضتيه تحت حنكه، وانطلق صوته بكلام فصيح يتلوه كتلميذ يردّد محفوظة، فيما شعره المصبوغ يدلف ماءً معتماً حبة إثر حبة مثل زيتون اليتامى..

[.. ولدتُ كآلافٍ من يولدون بآلافٍ أيامٍ هذا الوجود. لأنّ فقيراً بذاتٍ مساءٍ سعى نحو حِصْنٍ فقيرة، وأطفأ فيه مرارة أيامه القاسية.

كبرتُ كآلافٍ مَنْ يَكْبُرُونَ، حِينَ يُقَاتُونَ خُبْزَ الشُّمُوسِ. وَيُسْقَوْنَ مَاءَ
الْمَطَرِ. وتَلْقَاهُمْ صَبِيَّةٌ يَافِعِينَ حَزَانِي عَلَى الطَّرِيقِ الحَزِينَةِ. فَتَعْجَبُ
كَيْفَ نَمَوْا وَاسْتَطَالُوا، وَشَبَّتْ خُطَاهُمْ.. وَهَذِي الْحَيَاةُ ضَيِّقَةٌ!]

قال مجيئاً الأسئلة التي تومض في عيني الرفيق: هل تدري يا رفيق، أنني
يوماً ما.. كنت أحبّ الكلمات..

هبطت خصلات شعره المبللة على وجهه، وتابع: لما كنت صغيراً وبريئاً
كانت لي أم طيبة ترعاني. وترى نور الكون بعيني. وتراني أحلى
أترابي. أذكى أجداني.

فلقد كنت أحبّ الكلمات.. وأغنيها.

صباحي في المدرسة. وظهري بين المكتبات العامة ومساءً مع بسطات
الكتب، وأعود لأمي بالألفاظ البراقة كالفسخ المدهون.

أمي كانت تتلذذ بأقوالي. تتلقاها أذناها شهداً. يتسم خذاها، عيناها،
مفرقها. ويغرّد فيها صوت لا أسمعه إلا في ذاك الحين: الله يصونك لي.
ويمد حياتي حتى أراك أستاذاً، أو قاضياً، أو والياً، أو صاحب نعمة..

نفض شعره عن وجهه وقال بأسى: لكنني صرت "حرامي"!

هبط حاجبا عماد تعاطفاً ولم يقل شيئاً..

مسح القط دمعته بإبهامه وتابع مشيحاً عن عيني رفيقه المندھشتين:
كانت أمي خادمة تجمع كسرات الخبز، وفضل الثوب من بعض بيوت
المترفين.. وأنا لا همّة لي إلا في هذا اللغو المأفون!

مرضت أمي، قعدت، عجزت، ماتت..

هل ماتت جوعاً؟.. لا!

هذا تبسيط ساذج يلتدّ به الشعراء الحمقى والوعاظ الأوغاد. حتى يخفوا
بمبالغة ممقوتة وجه الصدق القاسي.

أمي ما ماتت جوعاً! أمي عاشت جوعانة، ولذا مرضت صبحاً، عجزت
ظهراً، ماتت قبل الليل..

ثم تنهد دامعاً: ما تركت لي إلاّ العرزال وشجرة توت..

قاطعته صافرة يونس تدعوه لتسلم كيس العدة.. فاضت عيناها
بالدمع.. مسدّ عماد شعر القط الذي صار بلون الألمنيوم المعتم، وقال
بحنان: هاي من صلاح عبد الصبور*!

قال وهو يغصّ بدمعته: مزبوط يا رفيق.. لكن عبد الصبور غلطان..
هاي قصتي مش قصة الحلاج.. صدقني يا رفيق.. الجوع ممكن يصنع
شحّاد أو حرامي.. الجوع ما يصنع ناثر.

ثم ضحك من بين دموعه.. وقال وهو يخلخل خصلات شعره الرمادي
إلى الخلف: أنا اخترت الثانية.. السرقة أشرف من الشحّدة.. هههه.
اجتهاد!

شدّ عماد على يدي القط بود خالص: تعلمت منك الكثير يا صاحبي.
علّمتني الفرح، واليوم علمتني..

رفع القط إصبعه مقاطعاً: السجن كله تعلم منك يا عماد. انت غيرتنا..
طلعت النبل اللي جواتنا.. ذكرتني إنه لي جناحان.

دمعت عينا عماد.. ضحك القط: قريباً تفرج يا رفيق.

لكن مشاكل السجن لا تنضب!

* إشارة إلى "مأساة الحلاج" مسرحية شعرية لصلاح عبد الصبور.

سرّ السرداب

- كنت بالسوق، ومرّيت أشوفك.

كان أبوه يزوره أحياناً في غير أيام الزيارة..

فهو يتمتع بوجاهة فطرية، توسع دربه أينما ذهب، وهذه الميزة سرعان ما جعلته قائداً للجان الدفاع عن المساجين، وموجهاً ومتحدثاً باسم أهالي المعتقلين السياسيين، ما أثار حنق المسؤولين.

ركب عطا الله بيك رأسه هذا النهار، ومنع الحجي من الدخول، متمثلاً انزعاج الحكومة من مبادرة الحجي الذي اقترح جلسة افتتاح المجلس الوطني الاستشاري^{*}، وطرح قضية المعتقلين السياسيين في الأردن، ووزّع مذكرة بالأسماء والأحكام ومدد التوقيف على وسائل الإعلام..

طلب أبوه من أحد الشرطة - وهم يعرفونه ويحترمونه - أن يوصل كيس برتقال لابنه، خرج عطا الله بيك عند الباب. متقمصاً دور الحكومة، وقال بعنجهية: قلنا ممنوع يا حجي. روح من هون.

عزّ على الوالد أن يُزجر بهذه الطريقة، رمى كيس البرتقال في وجه عطا الله بك: الله لا يكثر خيرك.

وصل الخبر إلى عماد بسرعة البرق، مدعماً بالتحريض:

كحش الحجي عن الباب.

كب الهدية ع الدرج.

* كان بديلاً للبرلمان المعطل آنذاك بسبب الأحكام العرفية.

الحجي حلف ما يزور السجن وعطا الله فيه.

لا تفوتها لعطا الله النذل.

(ماذا يفعل الرفيق؟!)

خرج إلى الباب الداخلي، وإذا عطا الله يقف بين البابين يرغبى ويزبد..

- هاي فوضى، كل واحد يجرب عباته ويحي..

قاطع الرفيق صائحاً من خلف الباب الداخلي..

- عطا الله. انت قد الحجي تيجي فيه، إذا انت زلما ادخل هون..

تفاجأ عطا الله، وارتبك.. تدافع المساجين يسحبون الرفيق عن الباب الداخلي.

تناقل المساجين الحكاية، وبهروا موقف عماد، وقللوا من هيبة المدير.. وتحديث الشرطة عن البرتقال الذي تبعثر على باب السجن، وتدحرجت حباته على المنحدر، وزيادة في التشويق تداول المساجين حكاية أن إحدى الحبات راوغت المارة، ونجت من عجلات السيارات، وقطعت شارع الهاشمي بأمان، وظلت تركض إلى أن توقفت في حلبة الخضار عند الخضرجي الذي باعها!

مضى اليوم ولم يدخل عطا الله ساحة السجن!..

المدير لا يدخل السجن يومياً، وقد تمضي أسابيع، لا يراه أحد من المساجين.. ولكن ما إن أوى المساجين إلى مهاجعهم، حتى بدأ الهمس:

(المدير خاف من الرفيق وما دخل السجن اليوم..)، مضى اليوم الثاني وارتفع اللغط: (عطا الله جبان)، وصل اللغط لمسمع الاثنين المدير والرفيق، فشعر كلاهما بالحرج، إذا دخل المدير فهي استجابة متأخرة

وساذجة لتحدي سجين لا حول له ولا قوة، والرفيق محرج لأنه إذا دخل المدير ساحة السجن فماذا بإمكانه أن يفعل..

ضحى اليوم الخامس دخل عطا الله بيك بصحبة لجنة صحية تزور السجن دورياً..

كان الرفيق يذرع الساحة بخطى سريعة كما يفعل كل المساجين في كل الدنيا.. تواب الزقراط حوله:

- هيو دخل..

- روح له ابن..

- اكحشه زي ما كحش الحجي.

جلس الرفيق عند الطموني وطلب كاسة شاي، علها تخلصه من الإحراج. دخل المدير لتفقد المطبخ مع اللجنة، فتنفس عماد الصعداء.. بعد قليل توجهت اللجنة إلى قهوة الطموني، والمدير في إثرهم، توثر الرفيق، لمع العرق تحت الترقوة. استيقظ الذئب. وقف هاتفاً:

إلك عين تجي هون يا عطا الله الطز!

تراجعت اللجنة.. ارتبك المدير، واصفر وجهه!.. التف بعض المساجين حول الرفيق، وناولوه أحدهم عصاً قصيرة لا يدري من أين جاءت. شعر بإناء الخوف يتهشم داخله ساكباً عصير الجراءة في عروقه. هجم. ولّى المدير هارباً باتجاه الباب!.. لم يدر الرفيق بالضبط كيف حدث ذلك، لكنه رأى العصا تنقذف في إثر المدير وتسمطه في أسفل ظهره.. تعثر عطا الله وكاد يسقط لولا أن الشرطة أسندوه، وخرج.

قُرع جرس السجن. أُعلن النفير.

رفعه الكرز على كتفيه، وتجمّع المساجين حوله يغنون:

عريسنا شيخ الشباب شيخ الشباب عريسنا
حرس الأبراج تركوا رشاشاتهم، واصطفوا على السور يلوحون للرفيق
باسمين..

لحظتها رأى السجن كله غابة ياسمين.. وشعر الآن أكثر من أي وقت
مضى. أنه يستطيع الطيران!

اقتاده "المأمير" إلى القبو كمن يزفون عريساً.. تكشف للجميع أن عطا الله
مكروه من الشرطة، أكثر مما هو مكروه من المساجين!

في القبو وجد فرصته ليتفحص السرداب.. انحنى، وحبا، ثم زحف كما
وصف له القط، وفجأة أعتم السرداب وضاق ثم استدقّ حتى لم يعد
يتسع إلا لذراعه.. مدها إلى آخرها فلم تصطدم بمغلق.. قرر أن يوسع
الكوة، وبدأ يزيع الأتربة بحماسة.. امتلأ صدره بالغبار.. وصار تنفسه
ثقيلاً.. تمدّد ساكناً، وغمرته سعادة ندية لأنه وحيد في عتمة السرداب..
بعيد عن السجن وضجيجيه وعن المدينة وضوضائها، وعن الحكومة
وأساليبها.. يحظى بحبّ الجميع، ولا يكرهه أحد..

غفا ورأى مها تدير زهرة ياسمين بين السبابة والإبهام، وأمه تزغرد
فيعج الفضاء بزهر الياسمين..

هل سمع عواء ذئب بعيد؟!

أفاق..

أحسّ بالتراب الذي نبشه يتسرب من تحت قبضته.. انتفض، تنفس هواء
عطناً قادماً من باطن التل.. تتبع حركة التراب فوجده يتسرب في فتحة

صغيرة إلى الأسفل، انكشف التراب عن روزنا بوسع طبق، صار يلّم التراب من حوله ويهيله فيها وهي تبتلع.. ودّ لو يحصل على قنديل ليرى ما في هذه الهوة التي انفتحت فجأة في أقصى السرداب!.. هل تفضي هذه الهوة إلى الحرية، أم إلى ظلمات هذا التل المكتظ بأسراره؟..

إذا كان جوناثان اكتشف سماء خلف هذه السماء، فربما يكتشف هو أرضاً تحت هذه الأرض.. سأفوز بإحدى الحسينين، أكشف سرّاً، أو أجد مخرجاً..

فكّر: (هل ستخرج من وركك قاصداً المدينة هكذا؟ أنت أيها الهارب.. من تظن نفسك؟ أتظن أنك قادر على الفرار، ثم الفرار، هكذا إلى الأبد! أيها الأحق، سيدورون خلفك من مقهى لمقهى، ومن شارع إلى شارع..)

توقف انثيال التراب إلى الهوة. نظر فيها فلم ير إلا العتمة، ولمعت في العتمة صورة الفتى الذي سيملاً الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً..

(في أوج زهوي؛ لا أبالي إن غيبي السرداب إلى الأبد.)
أفاق على نفسه في المستشفى، وحوله شرطة وأطباء.. وأهله، وعمّه الباشا أيضاً..

عبثاً بحث عيناه عن مها بين المحتشدين حوله!

نُقل عطا الله بيك إلى شرطة الحدود، وعاد أبوه يزوره كلّما سنحت له الفرصة.. ذكّ القبو بالإسمنت؛ وانطوى التلّ على أسرارهِ. وصار القبو حكاية من الماضي يرويها السجناء للأغرار..

صار المدير الجديد للسجن يداريه، ونزلاء الدار البيضاء يسعون إلى رضاه، والمساجين يتسابقون لخدمته.. لكنّ مها غابت!

جاءته اللّكمة هذه المرة من حيث لا يحتسب!.. في الدار البيضاء يتحدثون عن زميلهم السابق البشّمهندس.. (نيّاله، بده يهاجر هو وعياله على أمريكا..!)

أكّد له أخوه الخبّرية، فالمهندسون يتابعون أخبار بعضهم بعضاً:

- بعد قضية الاختلاس صارت الهجرة من مصلحته ومصلحة رؤسائه..

- ومها..؟!

رفع أخوه كتفيه كمن يقرّ بديهية: طبعاً سيأخذ أسرته معه.

وفجأة ظهرت مها على شبك الزيارة..

جاءت بكامل ألّقتها، وشجاعة اندفاعاتها..

جاءت مثل ماء راحوب الذي يروي ويروي..

مثل ظلال شجرة تين مكتظة بالرغبة..

كالشلال الذي يشبه الشوق..

أدخلت ذراعها عبر مربع القضبان. طوّقت عنقه. وقفت على رؤوس أصابعها. قبلته بحرارة وشوق وكبرياء.. أمسكت كفيه بكلتا يديها عبر القضبان غير عابئة بمن حولهما..

راجعة حبيبي.. سأزرع لك شتلة ياسمين أينما ذهبت.. سأترجم
النورس جوناثان.. أكمل تعليمي وأعود.. سأكتب لك من هناك..
اكتب لي دائماً..

غصّ قلبه باللوعة!.. تصرّفت وكأنها انتمت لذلك المجتمع الجديد قبل
أن تنخرط فيه!.. هل ستظل وفيّة له. هل سيظل وفيّاً لها؟!
- لا أقول وداعاً، ولكن إلى اللقاء.

عاد من شبك الزيارة..

[ييكى ويضحك لا حزناً ولا فرحاً كعاشق خطّ سطرأ في الهوى ومحا*].
قدم للإدارة طلباً أن ينقل إلى السجن المركزي في عمان..
ضحك القط:

- السجن سجن، ولو كان على شاطئ الريفيرا..

* الأخطل الصغير، بشارة الخوري.

لا مناص ..

مضى عام ونيف ..

حطّت الشتوية أحمالها، وصار البرد يسفع الجدران، ويلسع العظام،
ووافقت مديرية مراكز الإصلاح والتأهيل على نقل عماد إلى السجن
المركزي في عمّان، بوصفه حالة ميئوس منها.. وناءت الغيمات بأثقالها،
فانهمر المطر!

حبس المطر والبرّد المساجين في المهاجع، ولم يخرجوا لطابور الخمسات في
الساحة، وجرى العدّ النهاري كما الليلي داخل المهاجع. فيما عماد
يحزم أمتعته استعداداً للرحيل إلى عمّان صبيحة اليوم التالي.
رغم الجو العاصف تجمع أصدقاؤه يقيمون له "حفلة وداع" عند قهوة
الطموني..

للمطر في السجن إيقاع شجي يثير الذكريات.. لا صوت أجمل من
صوت المطر سواء أكان هائلاً على شق بدوي، أم منسكباً من مزارب
بيت طيني، أم ينقر على زجاج نافذة غرفة الصّف! أم يخشخش عبر
زهرات الياسمين على باب الدار.. أو منسكباً من مزارب السجن!
شقعة المزارب لها شجونها وذكرياتها..

(هل يوجد مزاريب عالية في سجن عمّان؟!)

ملاً القط إبريق الشاي من المزارب. أوقد الختار ناراً في زاوية الطموني
المعطلة بسبب المطر. تجمع هناك بضعة مساجين يتوحدون من البرد،
ويصطلون النار.. أتى أبو زهرة بقرطاسٍ فيها سكر وشاي وأفرغها في
الإبريق.. أسند القط ظهره للحائط وغنّي ..

"حن الحديد على حالو وانت ما حنيت
لو كنت تدري بحالو من زمان حنيت..
غنّي غناء حُرٍّ مكلوم على إيقاع صوت شآبيب البرد، ونقر حباته..
يشربون الشاي والدموع تسحّ مع الرذاذ المتطاير على وجوههم..
صمت الجميع حابسين نسيجهم احتراماً لأذان العصر..
شدّ الاختيار حطّته حول عقاله، وصلّي العصر تحت الرذاذ المرتد عن
جدران السجن!..
غدّي أبو زهرة النار بما تيسّر من سقط المتاع.
بلع الكرز ريقه وسأل القط: انت متأكد انه عساف طلع من سجن
الزرقا؟.
هز القط راسه مؤكداً..
سلم الاختيار يمنة ويسرة منهيّاً صلاته، وقال بلهجة صارمة: كلّ تمام؟!
قال عماد: ايش كلّ تمام؟ على ايش تتهامسوا؟
عصر القط آخر نقطة شاي في الإبريق، وانتقل إلى لحن آخر برشاقة..
أوف أوف.. أوف.. أوف
أوف يابا..
خدعنا القاضي خدعنا.. وع تلة أوراقه قعدنا
أوف.. أوف..
قدرنا ع السجن.. وع همّه صبرنا

لكن مين ع رد القضا يقدر يعاونا

أوف.. أوف"

تسحّ دموع الختیار مع رذاذ الماء فتصنع أنهاراً صغيرة تسيل مع أخاديد
وجهه المتغضّن.. يأخذ الكرزم الإبريق الفارغ.. يملؤه بماء المطر مجدداً،
وهو يتمايل مع اللحن..

مال القط نحو عماد، وقال: ساحني يا رفيق!

ضحك: على إيش؟

- الورقة..

- أي ورقة؟

- ما قدّرت الوضع..

- عن ايش تحكي يا زلمة.

- لما وشيتك للشرطة.

وضع يده على كتف القط، ونظر في العيون المندّاة بالمطر والدموع
حوله. تفاجأ بالجدية التي كست ملامح القط.. فصمت.

عاد الكرزم يحمل الإبريق مليئاً بماء المطر..

بلا مبرر واضح، نهرة الختیار: هاي مي ولا طين يا هامل؟

ضرب الكرزم إبريق الشاي في الحائط صارخاً: أنا هامل يا كرخنجي!

دفر الختیار السطل الذي يوقدون فيه النار، رفع عقله، وراح يضرب به
من حوله يمينا وشمالاً..

ارتفع الضجيج، والسباب، والتكسير. واتسعت دائرة النار!

صاح أبو زهرة: حريق.. حريق.. حريق..
رددت جنبات السجن: حريقه.. حريقه!!
فار المساجين من مهاجمهم مذعورين..
شدّ القط رفيقه من كمّه، وقال: أسرع يا عماد. تعال.
ظنّ عماد أنه يبعده عن المشاكل، لكنّه كان يأخذه إلى باب الساحة الذي
انفتح، واندفع عبره المأمير الخمسة مذعورين بسبب الشجار، حيث
تقتضي وظيفتهم أن يكونوا دائماً داخل السجن..
عبر القط وعماد الباب الداخلي باتجاه المنطقة المحرمة.. رمت السماء
وابلاً من حبات البرد مثل خرز المسابح..
في تلك اللحظة، هبط الشاويش يونس الدرج الداخلي بين البابين
حاملًا عصاه، ودخل السجن.. عبر أمامهما دون أن يعيرهما اهتماماً!
همس القط: اهرب يا رفيق..
عبرا الشبك الخارجي باتجاه الباب الرئيسي.. قفز القط لينوش الجسر
الذي فوق الباب، فلم يصله..
- مد يدك فوق يا رفيق.
مدّ يده وعادت خائبة، علا الضجيج في باحة السجن.. استعجله القط:
بسرعة. ما معنا وقت.
مدّ يده ثانية فوق جسر الباب، وأرجعها تحمل قطعة حديد طويلة،
أدخلها في عروة قفل الباب الخارجي، وعتلاها!
رفع قدمه. نظر إلى القط: واحد. اثنين..

ضرباً معاً قضيب الحديد بكلّ عزمهما وتوقهما للنجاة، فانكسر القفل
مقرقعاً مع هزيم الرعد..

انفتح الباب..

(ياه ما أوسع السماء!!!)

لمع البرق كأنما يشق صدعاً في جدار الأفق.. رأى وجه أمه بين
ضفيرتين من زهر الياسمين تفتح.. لا، لم تكن تفتح ذراعيها، كانت
ترفرف..

- أسرع يا عماد..

عبرا إلى الخارج. كانت السماء ترمي نتفاً من الثلج تتطاير مثل الريش..
انتبه لهما الخفير الملتصق بكوخه الخشبي. أطلق صفارته، وتهياً صارخاً:
مكانك. قف!

تجمّد سعيد مكانه مذعوراً..

بحزم وعزم، رمى عماد الشرطي بقضيب الحديد، فأربكه.. وهتف:
سعيد!.. طر. اعبّر الشارع.

نظّ سعيد يهبط درجات المدخل القليلة مثل قط مذعور..

سمع عماد صريراً حاداً، وفجأة رآه يطير!..

صدمته سيارة عسّاف: الفكس، البيضاء، الصغيرة.. رأى عساف يترنح
خلف المقود، وارتطمت السيارة بسور دار الحناوي!!

أعلن جرس السجن التّفير.

انطلقت زغرودة في سجن النساء.

هرع الشرطة من كل صوب..
رددت جنبات التل صدى الأصوات..
على ثلج الشارع كان سعيد مدهوساً مثل بقعة دحنون تتسع بسرعة؛
وتلون ذوب الثلج المنساب إلى شوارع المدينة.
تجمع ثلّة من الناس شرق كنيسة الروم يحوقلون، ويتقون هطول الثلج..
لعلعة صلية رشاش بين كتفيه..
مال أماماً ثم انتصب.
شعر بالريش الأبيض يغطي رأسه. كتفيه.. ويمتد على جذعه..
فرد ذراعيه إلى آخر مدى. أشرع جسده لياسمين السماء، ملأ رثيه
بالهواء المبلول. وقف على رؤوس أصابعه. تجلّى له وجه مها بكامل
نمسه.. رفر، وطار!
طار عالياً حيث صارت تظهر له بساطة الأشياء وعمقها..
وارتفع أذان المغرب.
